# اخلاق وآداب

# احلام الاحلام

تاليف

## حاذق

---

( حقوق الطبع محفوظة لجريدة اللواء )

---

الطبعة الاولى

( سنة ١٣١٨ هجريه )

---

( طبع بمطبعة اللواء بمصر )

# بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبحان الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾

حدثنا صادق بن خبير قال : دخلت مصرا من الامصار . على عادة السياح والسفار . فترددت على ساداتها . وعيون أعيانها . وصحبت كهولها وشبانها . فطاب لى الزمان والمكان . وما زلت بها حتى دخل علىّ شهر رمضان . سنة ستين وستمائة وخمسة آلاف . أو أحد عشر ومائتين والفين بلا خلاف . فسمرت ليلة من لياليه مع صحب لى وكان الحديث فى فضل ليلة القدر . التى هى خير من الف شهر . والشىء بالشىء يذكر فسرد فقيه القوم ماجاء فيها من شريف الآثار . وصحيح الاخبار . التى منها ان تفتح أبواب السماء . لقبول الدعاء . ومازلنا نخوض فى أمرها . ونتبرك بذكرها . حتى نزل بالراس . طيف النعاس . وانصرفت مع الناس . وأخذت فى أهبة النوم . بعد مفارقة القوم . وانا على تشوف الى هذه الليلة المباركة الزاهره . لالتمس من الله سبحانه وتعالى ماأريده من خيرى الدنيا والآخرة . فما أغفيت حتى رأيت كأنى فى واد لبست تهام أرضه الحلل السندسية . وتتوجت ريحان نجوده باكاليل الزهر الزهيه . وجرت فيه انهار ماء النعيم . يجعد وجهها تسنيم النسيم . كانها سيف سلته كف مرتعش . أو ذهل دهش .

والشمس كانها ملك تحرك للرحيل . فنثر تبرا لمواليه على الاصيل . او كأن الافق شفة كأس ملىء رحيقا . او شفة محبوب اعسلها ريقا . وكأن السماء طيلسان لازوردى والافق سجافه الاحمر . او امارة خجلة الشمس اذ دهمها الليل وناهيك بدهمة الاسمر . او انها من كثرة الالوان . بستان . او من الفرح . قوس قزح . والمكان على خلوه من كل انسان . بعيد عن وحشة الزمان . حتى كأن ارواحا مطهرة مسخرة للانس فيه تمر عصائب عصائب او كأن مظاهر من الابتهاج يتوالى طنينها وصداها من كل جانب . يكاد الانسان يتسمع من حواليه أصوات الفرح فوق تلك الهضاب . ويتناغى باحاديث الطرب مع اعلام تلك الرحاب . وأنا كلما وعيت قلباً . سمعت عجباً . فيالها ساعة انتعشت روحى بريّاها . واتحدت بسناها . وحركة الزمن من لطفها خفيت على الابصار . حتى لم أستشعر بولوج الليل فى النهار . ولم يدرك النظر . تبدل سلطان الشمس بولاية أخيها القمر . وقد أخذ النسيم بمجامع الاحساس . كما أخذت المناظر بجميع الحواس . فسرحت طرفى فى أطرافى . وأرسلت رائد بصرى لاستطلع الظاهر والخافى . فلم يرتد علىّ الطرف . الا بما لطف وخف . مما تخطفه النفس قبل العين . وتتناوله الروح قبل اليدين . وبينما رائد البصر . يتنقل فى ظاهر هذا الجمال الذى ظهر . ويستكشف منه غرائب مااستتر . بسر نور القمر . واذا بشىء تبدى وسط الأفق . لايشبهه نور البدر . ولا تحكيه طلعة الفجر . ولا يمثله ضوء ذكاء . ولا مجموع نجوم السماء . لازدياده فى رتبة الصفاء والضياء . فأدركت ان ليلتى هذه غير التى قال فيها أبو العلاء

ليلتى هذه عروس من الزنـ ـج عليها قلائد من جمان

بل هي ليلة القدر . والنور نورها . لا بدر ولا فجر . فاجرى الله على

لسانى ان اسأله ليريني ( اعجب ماخلق فى الوجود . واغرب ماوجدمن كل موجود ) فماقلت ذلك ودعوت . الا ورأيت مارأيت: رأيت صورة لم أعهد ان الارض تنشق عن مثالها . ولا ان السماء يتنزل منها مثل جمالها . تكونت فى هيئة شاب ينادينى . وهو يوافينى . يقول لقد أوتيت سؤلك فيما سألت . فهلم الى ماطلبت . فقلت وكيف ذلك . قال أنا المسخر لان أريك ماتريد . من قريب وبعيد . وقد أمرت بأن أكشف غطاء بصرك اسبوعا . لترى نفسك ماتشتهي لامقطوعاولا ممنوعا . وموعدنا بكرة الغد . بكرة الاحد . بكرة اليوم الذي بدأ فيه الحق . بخلق الخلق . لتأخذمن كل غريب . بنصيب . وتري كل عجيب . يذهل اللبيب النجيب . فعاود الا ن النوم . وموعدنا بكرة اليوم . لتحكم بالزين أو الشين . فان النهار ذو عينين . فقلت على الراس والعين

ثم لم اكد استريح . الا وقد اشرق وجه الصبح الصبيح . وظهرت الشمس بوجهها المليح . فاذا به بين يدىّ . يمسح عن عينى . ثم قذف بى فى الفضاء . وقال شأنك وما تريد . وتلى فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . فاذا بى جالس على منصة بين الارض والسماء . على غاية الاستواء . فاعتدلت واسترحت . وجلست وتمكنت . ثم قال لى انظر فنظرت . فرأيت احياء كانها الجسد المسلول الذى ألم به الضعف . فأمات منه النصف . تظهر فيها الدور التى لاتروق النواظر رؤيتها . ولا تشرح الصدور طلعتها . ضاقت بها الطرقات . وتضايقت الرحبات . وتخللت أوصالها الخرابات كأنها هضبة فى خلاء . أو أنقاض فى فناء . أو شىء آل الى الفناء . وبجوارها قصور تمثل زخرف الارض وزينتها . وبهجة الحياة الدنيا وسعادتها .

عالية شامخة . مشيدة راسخة . وضعت على اتم الاشكال الهندسية . وأسست على أمتن الطرق القوية

فقال تأمل هـذه مستقصياً لنعتها . ثم نعود لنرى أختها . فنظرت فاذا شوارع وأسواق عريضة مستقيمة فرشت أرضها بأجود الحجر . وزينت جوانبها بنضرة الشجر . ممتدة اغصانه . متلاعبة أفنانه . تظلل الممر . وتلطف الحر والناس على أرصفة من الجانبين . مرتفعة عن البين . كى لا ارا كب يصدمهم . ولا فارس يزحمهم . ولا مركبة تدوسهم . ولا مار يدافعهم . والحوانيت من الجهتين ملأى بالسلع المتنوعة النفيسة . والامتعة المختلفة والجواهر الثمينة والملابس الفاخرة . والاثاثات الباهرة . والزخارف البديعة . والغرائب من كل زينة . والاوانى الجميلة العديدة . وكاكين باعة الزهور المتنوعة . بهاباقات لا يحصيها العد . ولا يصل اليها الحد . وضعت على أسلوب يأخذ بمجامع النفوس . ويذهب البوس . وزخارف لسائر حاجات النعيم والترف . منضدة معروضة للانظار كالتحف . وضعت من خلف زجاج الحوانيت فاكتست رونقاً أزهى . ورتبت على أبدع ترتيب فاكتسبت شكلاً أبهى . وتتخلل هذه الحوانيت مطاعم للغرباء . ومشارب للنزلاء . جمعت من المآكل انضجها واشهاها . ومن الالوان اغربها والذها واحلاها . ومن انواع اللحوم الطرية . البرية والبحرية . والبقول الفكيهة والفواكه النقية . والموائد ممتد عليها غطاء ابيض نظيف وعليها الصحاف البديعة اللامعة مما خف ولطف . من فاخر الخزف . وبجانبها آلات الاكل من خالص الفضة ونقى المعدن وقنينات الخمور . والماء المثلوج فى دوارق البلور . وباقات الزهور التى تبهج الخاطر . وتقر بمرآها النواظر . مرفوعة على وعاء بديع يطوف على تلك الموائد غلمان فى غاية النظافة والخفة والنشاط قائمون

بمقام الخدمة البالغة منتهى الاتقان . وقد زين المكان ببديع الالوان . ولطائف التصاوير . التى تناسب مقام الطعام وتستجلب شهوة من يراها من الانام . وفوق هذه الامكنة الدور والقنادق والناس فيها على قدم وساق . فالنساء تتحلى وتتجمل . والرجال تتنظف وتتزين. ومنهم من ينتظر الحوذى ليهيىء له جياد مركبته. ومنهم من يستدعى الخادم ليأتيه بملابسه الجديدة وأمتعته. فقلت من هؤلاء قال النزلاء الاجانب يفعلون هذه الافعال لخلوهم اليوم من جميع الاشغال فاليوم عندهم يوم رياضة وخلاعة ومجانسة ومؤانسة ثم نظرت فاذا جماعة آخرون فى هياط . ومياط . منهم من يصلح رداءه ومنهم من ينتظر حذاءه . ومنهم من راسل أحد أصحابه من أرباب الاموال ليأتيه بشيء يصلح به الحال. ومنهم من أخذ يلج مع اهل بيته حتى يأخذ حليا يودعه ليتم له مايريد أن يستجمعه . ومنهم من أخذ فى الشتم والضرب. والنهر والسب. لفساد وقع فى بعض حاجاته. أو نقص اتفق حدوثه لشيء من أدواته. فلو رأيت الواحد منهم وقد وقف امام المرآة يتأنق فى لبس أثوابه لعلمت سر التمدن الحديث كأنما هو العروس ليلة زفافها يبتديء كمله الله بتمشيط شعره وفرقه بالضبط والتدقيق ثم ينظر اليه بعين المنتقد الدقيق ويقلب رأسه يمنة ويسرة ويحركها أماماً وخلفاً ليرى مجموعها من جميع الجهات ثم يعكف على تلك الشوارب فيكويها بمكواها حتى تصبح على اجمل مايكون من البرم والفتل. وتحوز على جمال صورته أحسن الشكل. ثم يقصد علب المعطرات الطيبة ويأخذ منها مايأخذ على تنوع الاجناس . منها ماهو للرأس ومنها ماهو للمنديل واللباس . ثم يتبسم فى المرآة ويعبس ليرى نفسه كيف يكون أنسها وقت الطرب . وبأسها فى ساعة الغضب . ولا يزال حتى تطمئن

نفسه ويرسخ فى اعتقاده كمال حسنه. ثم ينتقل الى رباط الرقبة ولا يزال فى حله وربطه حتى يحكمه. وهكذا يفعل فى كل قطعة من ملابسه فلا يفرغ من هذا التأنق الا وهو يزري بقضيب البان. ويقول فى نفسه أنا الانسان. فى كل زمان. فقلت ومن هؤلاء؟ قال المتشبهون بهم من أهل البلد. فى احترام يوم الأحد. فبقيت أتأمل ماهم فيه من حلق ونتف. ومخط ونف. ونظافة أثواب. وملاحظة أسباب. كأنما البلد منحت بنصر مبين أو فازت بفتح جليل. أو كشف للناس عن حقيقة علمية أو اختراع مفيد أو شيء مما يرغب فيه أو فضيلة مما يحث عليها. اذ أقبلوا يجهزون دواعى السرور. ويقيمون شواهد الانس والحبور. ومن شدة العجب من النظر لتلك الصروح العظيمة. والمبانى التى حول تلك السوح الجسيمة. والماء الذى يتفجر فى وسطها من الفساقى العميمة. وبيوت الحان والملاهي والملاعب والدور المزينة بأنيق الاثاث المفروشة بالخز والديباج. لم أدر كيف انصرف عنها. فقلت لصاحبي ما أحسن ما اريتنى وأشد ما أبهجتنى!! فقال دع هؤلاء فى شغلهم حتى يتموا أمرهم بنصب هذه المصائد. وتدبير المكائد. خلّ اللص يتشاور مع أخيه. فى المال الذى يود أن يلاشيه. واترك صاحب الحان يخلط السم المحلول. فى كؤوس الكحول. والقواد يرسم للغانيات كيف يحتلن حتى يسلبن. ويهجرن حتى يغدرن. فانما موعد ماتراه من الزخرف وتفسير ما أبهجك من الباطل فى هذا المأكول والمشروب. قبيل الغروب. وألفت نظرك الآن الى الناحية الأخرى لأريك ماهو أحرى. ففعلت. واذا بى مطل على تلك الناحية الخراب وبعد شدة التدقيق. والتحديق. لمحت العين فيها آثاراً تدل على سابق مكانتها فى العز ونعمتها فى سابق الزمن. قامت فيها المنارات على المساجد. والقباب على الأضرحة. جمعت

أخر البناء وأرصنه وأتمه، وأمتنه وألطفه وأحسنه . بأبواب وأسوار أقيمت بهندام. كأنما هي سياج على المدينة من الأبهة والجلال . وهي مع هذه المناظر الظاهرة الدالة على العظمة منيت بازقة مستقذرة . لا تكاد تهتدي فيها الطريق . أو تمشي مع صاحب أو رفيق . جرت الاقذار في وسطها . وسرت الروائح الخبيثة في جوانبها . والكلاب العاطلة شغلت طرقاتها . والجمال التي تحمل الأحمال سادّة عرضها . والحمارة تنقل الناس والحجارة . والطامة اذ يلتقي الجمل بالجمل. فيتعطل السير والعمل . بين قوم معرضين للاخطار . تحت رحمة هؤلاء السوقية الفجار والدهاليز والحوانيت . لا تنكيت ولا تبكيت

قبور تطل منها أموات الاحياء . في تلك الاحياء . وكثير من دكاكين الباعة على جانبيها اهرام من السلع الكاسدة، والامتعة الفاسدة . والبضائع التي دارت عليها الاحقاب . وقلبتها أيدي الطلاب . ونقلها الخلف عن السلف. حتى نسج عليها العنكبوت قصورا . وأخفى عليها الدهر كثيرا . وصناع نسخت صنائعهم مستحدثات الأمم المتمدنة . وأماتها كر الازمنة . وأمام بعض الدكاكين فوارغ لا يبالي واضعها بتضييق الطريق ولا بأذية أبناء السبيل . والاسواق منها ما هو مسقوف بالحجر ومنها ما هو معروش بقطع الحصر البالية تحمل بعضها الاخشاب النخرة . وبعضها الاعواد الرفيعة. والى جانب أولئك مرابط الخيل والبغال. والحمير والجمال. هذه بركت باثقالها. وتلك أنيخت باحمالها. والفضلات قد ملأت تلك الفسحات والدور . ما بين منشور ومنظوم ومنثور . والذباب يثب منها لمهاجمة المارين . وملاطمة وجوه الفارين . كأنما يذودهم عن مؤونته أو يصدهم عن بغيته . والكلاب تنبح كل ذي نعمة لكونها لم تعهد غير الفقراء. وتصول على كل راكب لأنها لم تألف أصحاب النعماء . ومطاعمهم من لحوم الجمال

والماعز والغنم . قدأدركها العفن والوخم . الني منها تصد النفس عنه قذارة الجزار . والشواء تردعنه رداءة الصحاف ووساخة الخوان . والبقالون والسمانون والخبازون . يستقذر حالتهم كل ذى ذوق ويعاف حاجتهم كل ذى نفس . تتنقل الكلاب فيها من مكان الى مكان . ومن دكان الى دكان . يطول مزاحها بين أرجل العابرين . ويكثر لعبها بين يدى الواقفين . وصيدليات أخذت الاجزاء فيها من القدم شكلا يخفى تركيبه على بقراط . فالمريض . مسلم الى الجريض . والمكاتب جمعت كل صغير . جمع التكسير . يجلسون على قطع من الحصير . وقد ضاق المحل بأنفاسهم . فأوقف حركات حواسهم . والناس كأنما لا نظر ولا روية . ولا ادراك بالكلية . وأينما توجهت لا تجد الا مناظر وأحوالا تشمئز منها الارواح . ووجوههم بالنسبة لاولئك كأنها ممسوحة بيد الكآبة يحكم الناظر لها بان التوفيق لم يمر عليها والضيق لم يفارقها . فقال لى صاحبي امكث بنا هاهنا نقضى بعض هذا اليوم مع هؤلاء القوم لتتأمل من حالهم . وتعرف دواخل أحوالهم . فامتثلت ومكثت . فاذا فى كل حركة بركة . حيث عرفت ان القوم على شدة ما هو نازل بهم من البلاء . وقلة ماعندهم من البيع والشراء . لا يغفلون عن الحمد والشكر فى السر والجهر . والذى يبايع منهم النسوة . يبالغ فى الاحتشام مختصراً معهن فى الكلام . ويكادون لا يبايعون الا بالحلال . ولا يستحلون فى غيره كسب المال . والناس على سكوتهم وخشوعهم من ركون ماهم فيه من الانحطاط . ناقمون على الذى أسس فى بلادهم هذا الافراط . حافظون أنفسهم بأنفسهم فترى سهم كيدهم بينهم . وأمرهم فى يدهم . لانى لم أجد أحدا من المحضرين . وقف على أحد الزياتين . ولا جيء بالنذار . لجزار . بل كل هذه المعاملات والطلبات راجعة الى كبرائهم وأغنيائهم . ولم أر بينهم

أجنبياً الا شاريا . لا ساخطاً ولا زاريا . يفتخر فى المنتديات بما يأخذه منهم من العاديات . فصرت أنقد هذا الحال . واتطلب السبب الذى أدى بهؤلاء الناس الى هذا المآل . حتى أذن المؤذن لصلاة الظهر فقامت الناس من مواطنهم الى مساجدهم . وأدوا الصلاة بالجماعة . بكمال الطاعة . ثم عادوا واشتغلوا بأمرهم . فمنهم من تدارك لوازمه من السوقية المارين . ومنهم من أخذها من الدكاكين . والكل لا يتعدى الطاقة . إما من القناعة وإما من الفاقة . وهكذا الى صلاة العصر . فلما أذن صلوه . والذى فعلوه بعد ذلك فعلوه . وأخذوا جميعاً فى الشراء والبيع حتى صرنا قبيل الغروب . وجاء الوقت المطلوب . قال لى صاحبي ليس بعد الآن الا أن يأخذ كل من هؤلاء أهبته . ويرتدى جبته . ويملأ من الدخان أو النشوق علبته . وينتظر ولده مثلا الى أن ينصرف من الكتاب . ويحمله الوطاب . ويصرفه الى البيت . بالسمن أو الزيت . ثم يغلق الدكان . ويقرأ عليها شيئاً من القرآن . للتحفظ من سارق . أومارق . ويصلى المغرب . حيث تدركه . ثم يذهب الى البيت . وهو ينشد هذا البيت

ولبس عباءة وتقر عينى أحب إلىّ من لبس الشفوف

فدعهم الآن والتفت الى الناحية الاخرى . ثم لفت وجهى بيديه . فاعدت النظر وأرجعت البصر واذا بنهر عظيم . مد عليه جسر قويم . جمع ضفتيه بطرفيه . تسير فيه المركبات . تحمل بدورا هالاتها القبعات . وما أدراك ما العقبات تيجان جمعت أزاهير الرياحين . بجميل الصنع لا من أصل التكوين . فاستغنت عن أيادي النبات . بايدي البنات . جمعن فيها اقحوانا كالثغور . وغرسن وردا يفاخر خدود ربات الخدور . ونسقنها بزهور لم يسقها الوابل الهتون . بل سقيت دمع

الشجى المفتون .حكت احاسن الزهر وفضلته ببقائها الشهر والدهر .ان فاتها أريج الروض فقد عوضته الغانيات بطيبها.او عدتها الغصون فهى على مثلها من قاماتها.من كل هيفاء تفضح البدور فى لفتاتها.وتسبى الظباء فى فلواتها.جوالس أو انس.ضواحك غير عوابس.وقد اقتفت اثار هذه المركبات مثلها سائرات مسرعات.حملت من جماعة الشبان أولئك الذين مزقت تربيتهم التقاليد.الذين أوقفوا انفسهم لعشق الجمال.وطلب الوصال.وقلوبهم تسبق الجياد.لنوال المراد. والعيون حيرى بين الجمال.والدلال.والافكار حائرة فى هذا الحال .فى سوق قامت لبيع المهجات.للأعين الناهبات.وقد أخذ كل شاب مع رفيقه سر أحاديث الحسان.وانه على موعد من تلك التى هى امرأة فلان.وليس منهم الا من يتناهى بما هو فيه من الصقال ليظهر بمظهر الجمال لربته.ويفوق على من هو فى صحبته.كانما هم فى ميدان التخنث يتسابقون.وفى حلبة التأنث يركضون. وأولئك يلحظن باللحظات.فتثبت لها العقول الثائرات.ولسان الحال ينادى

صاح فانظر لاى حال نحور أنساء رجالنا أم ذكور

وبين هؤلاء الغادات . من تزيا بأزياء المسلمات والشرقيات. بحال تصعب النفوس مشاهدتها . لشدة ماهن فيه من التبهرج والتبرج بالزينة حتى فاقوا الاجنبيات اللواتى قلدنهن وما زلن فى جيئة وذهاب . واتخاذ وسائل وأسباب . حتى بلغت المراكب الالوف . بعضها يتنقل والبعض وقوف فى الصفوف . حتى كأن تلك المروج النضيرة والبساتين سماء كواكب . زينت بهذه المواكب . ثم أخذت تلك الجماهير فى الانصراف. عن تلك الاطراف . حتى خلت البقعة من الهوادج والغانيات .وتبدلت حالتها وسبحان مبدل الحالات.فقلت لصاحبى ماهذا العيس وما هذا السفر والقوم لم يفارقوا

الحضر ؟ فقال هذا ميدان مغازلة . لا ميدانه منازلة . وعراك لبلوغ الاوطار لا لاستيطان الاوطان . واجتماع لفيح جميل . لا لفتح جليل . وانتصار على العقل . وتحالف مع الجهل . هذا ميدان يجدع انف الغيرة على الحريم . ويفتك بكل خلق عظيم . هذا ميدان مغازلة يجر الى مقابلة . تفضى الى مقاتلة . فقلت وكيف وصل تبهرج النساء المسلمات فى هذه الديار . الى هذا المقدار ؟ قال ان حركة التقليد السريع ساقت الطبقة العليا وما يليها من الامة الى محاكاة الافرنج فى كل الاساليب . والحجاب يهتك فيها بالتدريج حتى صار الى ماترى من الابتذال البعيد عن الدين ومذاهبه الا من عصم الله من بقايا العائلات القديمة الذين ألجمتهم التربية الاولى وفى بيوتهم شىء من الدين . أو من كانوا حين دهمت البلد هذه البلايا فارقوا عنفوان الشبيبة فكبروا عن التقليد الجديد ولم يتبدلوا . وقد سري هذا الداء حتى دب دبيبه فى بيوت الشيوخ والمنتمين الى حماية الدين وظهرت بوادره فاسأل الله أن لا يريك أواخره . قلت أمين

قلت ثم هم الى أين منصرفون وكيف هم عن هذه الناحية ناحون ؟ قال الى حاضرة البلد لقضاء بقية الليل فتابعتهم بنظرى . وماشيتهم ببصرى . فتفرقوا شيعاً فمنهم من قصد دور السكن . ومنهم من توجه ميما بيوت تلك المحن . وجانب البلدة قد اتقد بالانوار . التى قامت مقام الشموس والاقمار . فلا ليل ولا نهار . ولا أصائل ولا أبكار

كهربة أسعد بها تحفة جاءت الى الشرق من المغرب
دنت الى الارض ومن حقها ان لا تدانى نازح الكوكب

وتلك الملاهى التى وصفناها . والمغانى والحانات التى ذكرناها . تعددت فيها المشاهدات . وتناهت فيها الغايات . ووجد فيها كل ما يتمناه الانسان ويشتهيه

بحيث تفنى الشهوات ولا تفنيه .وزادت بهجتها بسر الاجتماع .فتناهت فيها مناظر بدائع الصناع . فأما نظرت نظرت عجباً مدهشاً . وإما رأيت رأيت بديعاً منعشاً .الرجال فى حللهم الفاخرة.والنساء بحليها متفاخرة. وكل جماعة فى تنوع ملابسهم فى الحسن واتفاق فى الزى كصحبة الورد أشكالا وألوانا وكالبستان روحا وريحانا

فبينا أنا أعجب. من هذا الموكب واذا به يشير على بالتطلع للناحية الاخرى ريثما يصلح بعضهم من أمره ويعكف كل على شأنه .فأجبت ونظرت فهالنى ماصرت اليه من الظلمة بعد ذلك النور. وما رأيته فى تلك الدور بعد هذي القصور . فان مافيها من أدوات الاستصباح لايتعدى نوره محيط جسمانه .ولا يزيد على إضاءة أركانه. فدققت النظر فاذا بعض القوم فى منتهى العشاء.وبعضهم فى مبدأ صلاة العشاء. فانتظرت حتى فرغوا مما هم فيه ومنهم من غلب عليه حب البقاء مع أهله فجلس يحاكيهم وهم يسمعون . ويفاكهم وهم يطربون.أقاصيص لاتخرج عن حد اللهو البسيط والفكاهة المقبولة . ومنهم من انتقل الى دار بعض اخوانه.وقد سبق اليها غيره من خلانه.فاجتمعوا يؤانس بعضهم بعضا ويؤدي مايحسنه من أسباب الخلاعة لانشراح النفوس وسرور الخواطر وشرابهم القهوة وتقلهم الدخان حتى اذا مضى من الليل بعضه تسلل كل الى منزله ومكانه.بعد ان قضى مايجب عليه لاخوانه.ثم أغلقت الدور على من فيها وبقيت تلك الناحية وليس فيها من أسباب الملاهى الا القهاوى التى يؤمها أرباب الاشغال والوظائف الليلية كالفقهاء والمؤذنين وأرباب الدرك للاستراحة وقطع الوقت. ولهم فى بعضها شاعر يسمعهم بعض الاقاصيص الموضوعة كعنترة وأبى زيد وهم من سماعه

منشرحون. وعن غيره من الملاهي لاهون. ومع قصر تلك المجالس المنزلية. فانها لاتخلو من فائدة دنيوية. أو مزية أخروية. فقلت فى نفسى حبذا الحال. واذا بصاحبي يدعونى للا لتفات. لتلك الجهات. فحولت نظرى فرأيت الامكنة خفت من أولئك الاجانب الا القليل من ارباب المقاصد الذين لم يقضوا وطرهم الذي هيأوا أنفسهم اليه من قبل. وانما يعمر تلك الملاهى أولاد السادات وقد خرجوا عن حد النشاط والانبساط. الى الافراط. حتى ان الناظر اليهم يقول ان الخمر اذا لم يحرمها الشرع. لحرمها هذا الطبع. وقد عكف كل على شأنه وهو منهتك فيه. وياحسرتا على تلك الملابس التى كانت جميلة. والهيئآت التى كانت جليلة. فمن رداء مهدول. على بدن منحول. ولسان لا يعلم مايقول. وانسان بعد ذلك التهذيب يصول. وامامهم تلك السموم التى افرغها صاحب الحان فى كؤوس الخمر. بل الجمر. وقد أصبحوا اضحكة الرائح والغادى. ومثلة الملاح والحادي. يسأمهم من كان يألفهم ويهجرهم من كان يهواهم. ثم بعد حسو تلك الاقداح. بالقاتل للارواح. سار بعض هذه الجماعات. الى بعض المنازل الشاهقات. وهى التى اقيمت للمقامرة. لا للمسامرة. منازل نوائب النازلين بها الفقر والسهاد. ونصيب الفاتحين لها اليسر والعتاد. اختصروا اللقوم الحياة عن قرب. فامّا عدم فى دقيقة فانتحار. واما غنى فى ثانية فيسار. تراهم جالسين على موائد منتظمة الوضع وعليها أدوات الميسر على طرائق اللعب المتحدة الاصل. ثم تقرب السهام. وتتقاسم الازلام. واذا المال يقول القرار القرار. والدينار لاتصافحه اليمين حتى تودعه اليسار. بعد أن يبقى على الوجوه من آثاره لون الاصفرار. فكأن الورق اذ يدار. نجوم الفلك المدار. فى بعضه الشفاء وفى بعضه البوار. واحداق العيون تتقلب فى دائرة

الحسرات . وتعد دوائر الساعات . لانظر لها الا ذلك المال الموجود. المفقود. وحالها حول لونه الوهاج. حال الفراش حول السراج. وصاحب المكان . شقيق صاحب الخان . لاشغل له الا تلطيف بعض تلك الحالات . بتقديم الكؤوس من العقار . لينسى اللاعب ألم بيع الدار والعقار. والقوم أصابهم سهم القدر. لاينتهون ولو جاءهم من الايام مافيه مزدجر. يلحظون بعضهم بعيون كأنها كأس خمر. ترمى بشرر كالقصر. كأنما حشوها جمر. ثارت بينهم الثارات. ودارت كؤوس الحسرات. غرهم مالاحت بوارقه فى ظلمة العيش وطلعت بوادره من شدة الطيش. فجاؤا بالاموال الموروثة حتى اضاعوها ثم أخذوا يقترضون ويلعبون يرجون المنفعة من وجه الضرر. حتى اداهم الحال ان صاروا عبيدا لهؤلاء الزمر. ووضعت الاجانب يدها على العقار والديار وأصبحت عاملة على رهنه إما باسمه أو باسم البنك القائم مقام كثيرين منهم. ولم ينج أحد من هذه المظاهر الا القليل. وما زلنا ننظر هذه المناظر. التى تدمى عين الناظر. الى ان تصرم الليل وانصرف كل الى مكانه اما بالخسائر الفادحة واما بما يظنه الجاهل مكسبا وهو جزء من ماله المستلب. وكيف لايكونون كذلك ومبلغ علم الواحد من هؤلاء الجهلاء خبر جواد مطهم اشتراه . وآخر باعه أو اباه أو حظية عشقها ورافقها. أو أخرى خادعها ونازعها. أوسرد تواريخ ليال السرور. وساعات الحبور. التى أحياها وجىء فيها من الأمانى التى هى فى الحقيقة منايا والتعريف بمقدار النعم التى رتع فى ساحتها والمنح التى منحها حتى ذهب فيها مقدار من أمواله. مسكين ليس له نصيب من بركة عقله وصفاء ضميره . سىء لانه ابعد ما يكون من علم وعمل. وأسام مايكون لفائدة تعرض عليه ولو انها جلل. فلاحظتهم بنظري حتى وصلوا

البيوت وهم فى سبات من هذا الحال . فمنهم من أوصى بتعريف كل سائل ( بأن البك سافر لطلب مستعجل جاءه من وكيل أشغاله بالتلغراف ) ومنهم من أوصد الباب . وسد باب السؤال والجواب . ومنهم من لم ينم حتى نمق الرسائل . واحكم الوسائل . لبعض اخوانه يطلب شيأ يسد به هذا العوز . ومنهم من أتم ليلته . فى التشاجر مع حليلته . يحتال عليها ليأخذ شيأ من حليها وهي بما اعتادته معه من كذبه . وقلة أدبه . تمنعه . وتدفعه . ومنهم من اضطجع قليلا وفكر كثيراً حتى عزم على ان يقصد أحد ارباب البنوك فيحتال بتقبيل الأيدي والأقدام لينال ماينال . هذا ونساء البيوت تشكو ماهى فيه وتستجير فلا تجار . باتت على وسائد السهاد والانتظار . واصبحت على اخبار الخسران والافتقار . عار وأى عار ان ينزع السيد بيده حلياً ألبسه لاهله . ليبيعه لسد ماجنته يده فيما هو ليس من اهله

ذكر فى بعض الاقاصيص : كتب كلب الى كلب أما بعد ياأخى أدام الله حراستك ان من بنى آدم قوما تسافلوا الى حد ماعليه من مزيد حتى أصبحت انا وانت بالاضافة لهم معن بن زائدة وطلحة الطلحات فارتفع فى المجازر واصعد على المزابل وارفع ساقك وبل على من لقيت منهم والسلام

ثم تركنا هؤلاء على حالهم السيء ونظرنا نظرة الاجانب اللذين كانوا معهم وفعلوا مافعلوه تقليدا بهم بل كانوا يحثون أمراءنا على فعل مافعلوه جهرا ويضحكون سرا فاذا هم نائمون على انعم بال . وأتم راحة وأفضل حال . لانهم لم يستول عليهم الهوى بخفته . ولا الضلال بجملته . فاقاموا اما أقاموا والجد مصاحبهم والعقل غير مفارقهم . فلم يجروا البلاء لانفسهم بايديهم . ولم يغوهم شيطانهم ويمنيهم . ولا فات أحد منهم درهمه . ولا أضاع الوقت الذى قرره ورسمه . ولم

يجهل فى أي موضع يضع قدمه فلم يعمر ذلك المكان لآخر الزمان الاسادة الوطن ولم يتركوه الا بعد ان ادركهم العطب والعطن وأحرمهم ماذاقوه من البلاء لذة الوسن. وأعجب من ذلك ان اولئك الاجانب فى شبه المحجور عليهم لانهم مضطرون بسبب أشغالهم الى عدم الخروج لهذه المنازه على الدوام الا فى هذه السويعات فى مثل هذا اليوم يوم عطلة العمل عندهم. ولكن الامر مدبر بينهم معلوم لهم ماسيكون لهم وعليهم فيه. ولم يؤثر فيهم طول الاحتجاب عن مثل هذه الملاهى ولم تدعهم حالة الشره الى الميل مع الشهوات ولم يتجاوزوا موعدهم أبداً ولم يخلفوا مع أهلهم عهدا. والذى سكر منهم أو قامر لم يسرف فى شيء فوق طاقته ومنهم من لا يخرج الا بعد أن يرصد ما سيقتضيه صباح يوم الاثنين من بعض أولئك المدينين فيعقد معهم العقود. ويقوي العهود. وهم يحمدونه على انه لم يتركهم وقت الشدة. ولا نسى عهدهم زمن الضيق. بل منهم من يعين أولئك الخاسرين بماله فى ذلك الوقت وهو متطلع الى الدرهم فضلا عن الدينار محتسبا عليه ذلك بما يريد ويشتهى من الفوائد الجسيمة. والارباح العظيمة. ثم تركنا هؤلاء أيضا فى استراحتهم وحوّلنا النظر الى الجهة التى يدعون انه تم عليها القدر بالخراب. فوجدناهم قضوا ليلهم لباسا. ليقضوا نهارهم معاشا. وقام الكثير قبل صلاة الصبح فأدوا فرضه: البعض فى بيوتهم والبعض فى بيوت الله. ثم ذهبوا الى دكاكينهم ففتحوها وجلسوا يبتغون فضلا من الله ورزقا حسنا.

فأخذت صاحبي الى ناحية فى تلك الناحية وقلت بحياتك فسر لى ماأنا فيه. فقال هو نتيجة التقليد الاعمي وأخذ كل قبيح. وترك كل مليح. حتى أصبح السادة عبيدا. والعامة قادة. وأصبح جميع الاهليين لو وضعوا مع الاجانب فى

الميزان لكانوا فى كفة الخسران. هل تصدق لو لم تر - وقد رأيت - أولئك عصر النهار .على تلك الابهة والوقار. ان يؤول بهم البوار الى هذا الحال؟ كيف كنت تري تلك الزينة. وكيف تشاهد الآن هذه الوجوه الحزينة ؟انقلب وردها بهارا.وبشرها انقباضا وازورارا .هذه الطائفة التى نشأت بين عادتين وتربت بطبيعتين .أصل الفطرة والسجية .الموجبتين للتسامح بالكلية.والادب الجديد.أدب الغش والتفنيد. فضاعوا بين الضدين. وأصبحوا مأكلة فى لمحة عين. سافروا الى تلك البلاد ليجتلبوا منها الخير لنا ولهم. وليتشبهوا ان لم يكونوا مثلهم. فعادوا فاسدي الاخلاق .حاملين الى البلاد مالا يصلح لها. ذلك انه لامكره لهم هناك على تعلم العلوم. ولا رادع لهم اذ ذاك عن التخلق بكل خلق مذموم فقاهم طيشهم الى ارتكاب كل منكر وفاسد وأحوجتهم الحالة الى التشبه بآدابهم ومنهم من لازم الاجانب فى هذه البلدة وقال لمن سافر سأدرك قاعدا ماأدركته مجاهداً فدخل البيوت ولازم النوادى ووقف نفسه على رضاهم فدهم الكل داهم الشهوات وأصبحوا لا ترشدهم خطوبهم.الى عيوبهم.ولا يتحاشون شيئادون نيل مرغوبهم. آخذين بمعايب الاجانب.متشبهين بهم من كل جانب.داخلين فى غمارهم.نازلين فى ديارهم.وهم يستلبون منهم كل ثمين والحكومة مغضية عن كل ذلك.مغمضة أعينها عن أسباب المهالك. تترك الاموال تنجر الى البلاد الاجنبية مندفعة اندفاع المياه فى التيار .تخطف وتوارى قبل ان تلحظها الابصار. وكانما الكبراء فيها يساعدون الاجانب على سلب أموال الوطن وهم لاهون بما بين أيديهم من أسباب الترف والنعيم لا يتفطنون لما يأخذ بجسم الامة من الانحلال ويعتري ثروتها من الاضمحلال ولا يتحمسون لدرئ غارة الاجنبي عن كنوز البلاد فالحكومة لا تدخل فى

هذا الامر أصلا كانه لا يعنيها فقر أولادها الذين مات آباؤهم فى خدمتها للحصول على رضاها. فانتهت أموالهم بهذه الصور التى رأيتها وأصبحوا الآن ولا خصم لهم الا العادات القديمة يريدون ملاشاة وجودها والعبادات الدينية يودون اطفاء نورها. جهلوا الحياة الشخصية. والسيادة العمومية. فأعدموا وافتقروا. وهدموا ودمروا. وضلوا وكفروا . وتلبسوا بالجرائم. وسهلوا المآثم. وثلوا عرش أملاكهم. وسعوا فى طريق هلاكهم . وكل هذه الجهات التى أعجبك لطفها . وهالك ظرفها. هى القصور التى تجرد عنها الوارثون. وأضاعها الاهلون. وصارت الى غيرهم بسوء تدبير هؤلاء الشبان. وان الانسان ليتقطع قلبه حزنا اذا اطلع على بقية ملاكها . وفيهم صبية كالفراخ أو أرامل غفل من صون الحجاب والانقطاع الا عن أهل لا يعلمون من أمر هذه شيأ ولا يفيقون من غفلتهم الا وقد حضر محضر البيع وجردهم عما يمتلكون ويصبحون وهم فى دار الذل من سوء ادارة ذلك الولد المحبوب الذى اضاع ما اضاع فى شهواته. فهل ما أنت فيه هو العمار. أو تلك الناحية التى عليها مسحة التعاسة والانحطاط المشوهة المنظر والهندام احياء الوطن المنحط وأهله البائسون تركوها على هذا التشويه الظاهرى تصون البنات وتحفظ الشرف وتستر العورة ولا تبدى السوأة وتخفى السيئة وحسبك ان كل دار هناك لصاحب الدار وكل قصر هنا معار وقد أصبحت هذه البقعة وهى لا تجاوز الافدنة تأكل خمسة ملايين من الافدنة التى هى اطيان القطر ولا تظهر فيها وتأتى على تركات الامراء فان اغلبها تصفى فى ارجائها فكانها على حد قول ابى احمد الهروى

هراة ارض خصبها واسع ونبتها التفاح والنرجس

ما احد منها الى غيرها  يخرج الا بعد ما يفلس

أغرك ماتلقاه من حسن ملبس  ومن شاهقات الدور نحو السما تعلو
ومن عربات غاديات روائح  ومن كهرباء لا يصادمها الليل
مناظر أوهام لعمرك كلها  وما ذا يفيد الزج غادره النصل
مظاهر تقليد أقيمت بلا نهى  اذا هدمت يوما تبوأها الصل
بثتها يد الاوهام حتى اذا هفت  بها الريح أهوتها فليس لها أصل
تركنا سجايانا وهمنا بغيرها  غروراً ففى أعناق أكثر ناغل
جهلنا نواميس الحياة وانها  لاول مايدعو لها العقل والنقل
تبصر فليس العيش الا معامع  يفوز بها الاقوى ويكبو بها النذل
فمن نام عن حق له ضاع وانمحى  ولا ترذا ظلما فهذا هو العدل
قضت سنة الدنيا بهذا فلا تكن  أسير أمان لاشعور ولا خول

أين أزمان هذه الاماكن التى تراها الآن مغلقة موصودة؟ لقد كانت زهرة البلد لا يسكنها الا ساداتها وأمراؤها. وكان ماحولها من ضاحية البلد منارة لها. وكانت من الطهارة فى درجة تقرب من طهر المساجد والمصليات لايخلو بيت فيها ليلة من الليالى ولا يوما من الايام من شىء يتقرب به الى الله تعالى كتلاوة القرآن والحديث ومواساة الفقراء وموازرة الجيران. وكانت نواديهم حواضر أدب يفتخر فيها بكثرة الاطلاع والتبحر فى العلوم والمعارف. ثم حكم هذه البلاد حاكم غير الاحوال وبدل الافعال لانه ممن ربى فى غير هذه البلاد ومال الى الاجانب ميلة هوى لاميلة تفرس وانتقاد. فلما استقل له الامر قلدهم شبرا بشبر وذراعا بذراع. ولم يكن ذلك بتدبر وتبصر بل بالتسرع

الشديد الذي أراد ان يستخدم فيه جان سليمان فضلا عن الانسان وان يستبدل اليوم مكان الشهر والحول موضع الدهر فنقل البلاد والعباد والاخلاق والمعاملات وجميع الشؤون الشخصية والعمومية الى أحوال أخر حتى تراكمت عليه وعلى غيره الديون والطلبات واستحقت المستحقات فى آن واحد ضاقت فيه عنها اليد والزمان نخرج لهم عما ملك

وبيان ذلك ان أول مابدأ به من تغيير الحال تغيير السكن وهيئة المعيشة فخبب لقومه ظاهراً واكرههم باطنا على استعمار ضاحية البلد على طرز مخصوص وبناء معهود وشكل مقصود . فخرج الناس الى تلك الناحية يقيمون فيها القصور مرضاة له وفتح لهم باب الاقتراض من الاجانب بنفسه ليهونه على من يعز عليه ذلك منهم . فقامت الابنية بعضها بالنقد وبعضها بالدين وبعضها بثمن ما كان للمالك من ملك أو عين . باع تلك واشترى هذه غبنا . ومنهم من ارتبط بشروط . ومنهم وهم القليلون من الخاصة من ساعدته حالة اليسر على عمل ماأراد فبنى وشاد . ثم لم تزل الايام تتقلب بها وباهلها حتى انقلبت هذه الجهات مستعمرات أجنبية . وكذلك العالم يستخدم الجاهل والعاقل يسلب المجنون والبسطاء يضيعون بين التزلف والاذلال . فكان ما كان من هجران تلك المنازل القديمة لانتقال أهلها فى أثر اصحاب الجاه ليتقربوا اليهم ويعدوا منهم لاستحسانهم ما استحسنوه . فعمر من البلد ما كان خرابا . وتخرب ما كان عامرا . ثم لم يلبث ذلك العمار الموقت ان ضاع من يد أهله بتلك الطرق أو انتقل الى جهة أخرى لاختلاف رغبات الحكام وميل بعضهم للجنوب والآخر للشمال واصبحت هذه الجهة لايأوى اليها الا من تراه فيها . ثم زادت على الحكومة التكاليف التى

تستلزمها العادات الجديدة من كنس ورش وفرش بالآجر وغيره. وتعهدت بالماء تقريبا الى الاجانب بكل جميل وبخلت على تلك الجهات الاصلية كل البخل فلا تفتح فيها الشوارع التى تصلها بهذه التى تم تنظيمها ولا توصل الى ازقتها الانوار التى يستصبح بها اهل تلك من الغاز فضلا عن الكهرباء بل قدانف رجال الصحة والنظافة من ان يمروا فيها لملاحظة طرقاتها وغيرها. فالناس ان كانوا فى هذا المقت والبلاء فذلك من أثر هذه الاحوال مع ان هؤلاء هم اصل الشعب وخلاصة الرعية اللذين يلبون الامر بدفع ماعليهم من جميع الاقساط من عوائد واموال مقابل نظام البلدة والعناية بها. ولقد ادى هذا الحال الى رخص أثمان العقار والارض والبضائع والامتعة كما ادى حب التقليد بالناس من جهة اخرى الى ان عكفوا على الاجانب يستحسنون كل ماجلبوه حتى اصبحت بحيث يعسر عليك ان ترى احد الامراء والوزراء يستجلب فى السنة فضلا عن الشهر شيأ من بلده للوازم داره. فانقطع المدد وتعطلت الاسواق ووقفت الحركة وفسد ما كان موضوعا ووضع ما كان فاسدا ولا حول ولا قوة الا بالله

أنظر لحب التقليد الاعمي كيف دعي الخلق للخروج عن حدهم وأوجبهم ان يجهزوا على معتقداتهم وعاداتهم وشرفهم واحسابهم وانسابهم. قد استسهلوا الدخول فى كل شيء حتى أمر الزواج فترك الناس بنات الاكفاء ذوى الحسب والنسب والتسرى الذى هو نهاية ما كان يسمع به فى التوسع واندفع اولاد الامراء وأبناء البيوتات الى التزوج بنساء الافرنج غير ملتفتين الى حسب أو نسب حتى أصبح الاميريصاهر البنكير واصبح من ابتلى من القديم بزوجة مسلمة فى حسرة على حجابها وعاداتها

جذبهم الاجانب بما كلفتهم به من العوائد الى ارتكاب الديون فخرجوا مما تحت أيديهم من الاموال ونزاعوا ما فى صدورهم من الاديان وما فى نفوسهم من القواعد والعوائد وكرهوا لغتهم وتقاليدهم وتعاليمهم وانكبوا الى بلاد الاجانب يضن الواحد منهم على أهل بلده بالدرهم ويسمح لأولئك بالدينار

أنظر للخمر وما أدت اليه من البلايا. فقد كان شاربوها منذ سنوات فئة قليلة من كبار أهل المدن الكبري وكان تجارها على قلتهم يقطنون تلك المدن فما زال الداء يسري ونهر الخمر يجرى حتى امتلأت نفوس القوم بحبه ووفود بائعى الخمر يفتح بعضهم لبعض الطريق حتى سكنوا القري والنواحى والكفور والمدن واصبح لهم فى كل بقعة بيت او مخزن او دكان أو كوخ حتى اعتاد الفلاحون واهل البلاد فضلا عن سكان المدن والامصار على شربها وقد كانوا ابعد الناس عنها. وصرت اينما تولى وجهك تجد اعلانات موضوعة بالفوائد المترتبة على شربها . واصبح المصري بقوة التقليد منساقا اليها فشربها واكثر بلا روية ولا تدبير حتى ذهبت الارواح والعقول وضاعت الاحساب والانساب وذهب الشرف ضحية هذه الهدية الغربية. فلو ان كاتبا كتب ما اعدمته الخمر من هذه الجواهر فى هذه السنين الاخيرة لكان فى ذلك تذكرة لقوم يعقلون

الاوبئة خسائرها محصورة ولكن هذه الخمر التى جذبت لها النفوس أو هى جذبتها وتم لها الادمان والانهماك عليها اذهبت من الانسان صفات الكمال والادب والشجاعة والمروءة لايختلف فى ذلك شرقى ولا غربى وأصبحت الامة فى أسوأ حال كما ترى

هل من طائف فى البلاد المصرية وقراها متنقل من بلدة لاخرى ومن قرية لاختها ليري بعينه مادة الخمر المنتشرة وشاربيها المنهمكين فى شربها بلا حد لا شريعة تردعهم ولا قانون يرجعهم ولا حكومة تردهم ولا ضابط يحكمهم والبلاد باهلها مسوقة الى الخراب عدا مصائبها المحيطة بها من كل جانب

انظر الى عاصمة البلاد موضع الحكم والحاكم ومحل القضاء والافتاء ومنبع القوانين واللوائح تعجب من هذه الحانات المتخذة فيها والخمر المنتشرة بين أهاليها وتزاحم الشاربين عليها وسريان دائها فى كافة الطبقات من الامة حتى لم يسلم من شربها غنى ولا فقير بل استلبت نهى الكل حتى من كانوا متمسكين بالمبادىء الدينية والاحكام الشرعية. وبائعوها قد قاسموا الناس فى أرزاقهم وأجرهم بل تعدي ذلك لاملاكهم وأطيانهم

يعجب الانسان من حال هذه الامة التى كأن الله سبحانه وتعالى نزع منها عقولها حتى استحلت ماهى فيه بل جعلت المحرمات من القربات فان أهم أسواق الخمر رواجا هى أسواقها فى الموالد كأنما أصبحت من ضمن معارض الخير التى تقيمها الناس يحيون شعائرها. وكأن المخافة من الله والحياء من الناس واتقاء ملامة الخلق أصبحت لا وجود لها. تراهم كأنما نذروا أنفسهم ليقيموا أسواق الفساد فيها وأصحاب المكانة وذوى الاعتبار لا فرق بينهم وبين الفلاحين الاصاغر الحفاة العراة لان الكل جالسون وامامهم قنانى الخمر مع ان أغلبهم لا يعرفون لها طعما ولو سأل أحدهم سائل ماذا تفعلون لقالوا نفعل كما تفعل الامراء والسادات

اغفلت الحكومة كل واجب فى هذا الامر وتجاهلت عن كل حق عليها

للامة وتبرأت من ان الاهالى هم أولادها وهى المسئولة عن صحة الشعب البدنية فضلا عن الجواهر العقلية التى أشد مفسد لها شرب الخمر وستبقى الحكومة ساكتة حتى تمسى حاكمة على طائفة من الخلق الواحد منهم اما مجنون بالفعل أو فى حكم المجنون

فقلت لصاحبى واين مستقر هذه الحكومة وماهى صور هؤلاء الحكام. والى أى طريق من طرق الحكومات ينسبونها فان الروح بلغت من حديثك الحلقوم .أيحكم هذه البلدة أعداؤها حتى اختلفوا فى المشارب والمنازع كما اختلفوا فى الهيئات والمجامع . واذا كان فى كل ملة سادة أعلام هم مصابيح دينها . ونباريس يقينها . ونجوم ارشادها . ورجوم الحادها. ونصراء حقها . وحلفاء صدقها . فأين علماء ملتكم . يهدون هؤلاء المارقين ؟ وأين حكامكم يمنعون الضالين ؟ فقال لاتعجل فقد اقتربت الساعة التى أريك فيها هيئة الحكومة ومحل حكمها . وصفة حكامها . وكيفية أحكامها . فانهم الآن يتهيؤن لتشريف دست مناصبهم وأراك سعيداً لان اليوم يوم الاثنين ولهم فى مثله وفى يوم الخميس من كل أسبوع اجتماع تقضى فيه مهمات الشؤون فى جلسة فيها مدار محاضراتهم . فانتظر وعما قليل ترى القوم مجتمعين . ثم تراهم فى مناصبهم منفردين . فتقف على حال الوظائف والمناصب وأرباب المقاعد والمراتب الذين تقام بهم حدود الاحكام . وتفتخر بذكر أسمائهم الاقلام. وتستقيم بهم الامور. ويتوقف عليهم نظام الجمهور . وتشرق بهم أنوار العدل . وتتحلى بهم اندية الفضل . بل هم سادة الاقطار . وقادة الافكار . وساسة الامم وأرباب السيف والقلم وأهل الرئاسة والزعامة . وأولو العزة والشهامة . وتنظر كيف يحكمون . فقلت عجل بى لارى هذا الحال فأشار الىّ بان التفت .فاذا دور فى طبقة

الوسط قليلة الخدم والحشم .عديمة المظهر الواجب ان يتخذه أمثال من وصف لى من الحكام فى مدينة مثل هذ المدينة وعلى أبوابهم عربانهم لم تزد شيئاً عن غيرها من المعتاد . بل ربما قلت من جهة التعهد بالنظافة . فقلت لصاحبى لعلك أخطأت الامكنة وجهات مساكن هؤلاء الاخيار ؟ قال لا .انما هؤلاء يتشبهون بالاجانب من كل جانب حتى فى المسكن . ويود أحدهم ان لو اتسع نطاق التقليد بأكثر من هذا فينتقل الى نزل عام فيكتري فيه ناحية يقيم فيها هو ومن يتبعه أو قسما من منزل مشترك كما تفعل الغرباء عندنا ليخلص من ورطة البواب والحجاب ويستريح من معاش السفرجى والفراش . ولا يبالون بان طوائف الخلق وعامة الناس هنا يهزؤن بهم من هذه الاحوال فاصبحوا لا يرهبونهم لتجردهم عن مظاهر الأبهة الواجبة للحكام . ولا عجب فانهم قصار العقول بعيدون عن ادراك ماوراء هذه المشاهدات . ألا ترى ان الله عذب بنى اسرائيل بالعذاب العاجل لضعف عقولهم واحال العرب على العقاب الآجل لبعد مداركهم ؟ ألا تري ما تفعله مع الطفل من الضرب والاذى على أثر الذنب الذي يقع منه وما تتوعد به خصومك من الرجال ؟ هؤلاء ظنوا العالم سواء فاحالوهم جميعاً على القانون فنسخوا الخشية والرهبة من القلوب وتصوروا ان ذلك منتهى العدل الذى يمكن أن يجوز وقوعه فى بلاد أخرى. فقلت عجبا وأي عجب ! ثم بعد قليل خرج هؤلاء السادة من قصورهم ولا خروج البدور من آفاقها . فتاملتهم فاذا بهم وصلوا فى الملبس لحد البساطة حتى أشبهوا كل انسان وأصبح كل انسان يشبههم : لباس قصير فوقه رداء صغير استدعى خفة الحركة فى السير فأسقط عظمة القدر والحشمة وأضاع أبهة الحكم ووقار المنصب . ثم ركب كل منهم وسار مستنشقا الهواء على ضفاف نهر يقرب

من تلك المنازل تشحيذاً للافكار وتحريكا للطباع . ثم عادوا قاصدين دار الحكم واحدا بعدواحد . وهو على مايراه الناظر محكم التشييد . متقن البنيان. مهندم الاركان . فاجتمعوا فى محل أوصد بابه . ووقفت عليه حجابه . وصاروا يتراطنون. فقلت لصاحبي ماهذا فانى لا أفهم من كلامهم شيئاً . فقال ان لكل من هؤلاء مضاربة فى ربح وشركة فى مال وتداخل فى تجارة فهم يتكلمون الآن فى خاصة أنفسهم من جهة ذلك . فقلت ظننتهم ظنوا شيئاً أزعجهم . أو توهموا تغييراً فى السياسة العامة فهم يعدون الجواب لما رأوه . او أن لديهم مشكلا يفحصونه ليقفوا على لبه لينا ضلوا عن الحق بالحق . ثم لم تمض لحظة . الا وقد دخل عليهم شاب يطير نشاطا فحياهم وحيوه . ثم تبعه آخر وآخر حتى تمت الهيئة من الحكام ومستشاريهم وأخذوا فى المذاكرة فأخرج كل واحد من أولئك المستشارين ورقة كانت معه . فيها ماراًه من المشروعات الجديدة فى نظارته وما يريد ان يقرره من الاجراآت الجديدة . وهكذا فعل الثانى والثالث حتى انتهى العمل فى أقل من لحظة بالتصديق عليه . وأمر برفعه للحاكم الأكبر لاقراره وتنفيذه . ثم أخذت الحكام تبدى الشكر . لمبتدع تلك الاصلاحات ومخترعها ومقترحها . والقائل بها . والحكومة بما وقع فى هذه الساعة من هذا التقنين وما تقرر فيها من هذه اللوائح فقدت نفوذا كبيرا . وخسرت مالا كثيراً. وانحطت شيئاً عظيما. واستلب من يد هؤلاء كثيراً مما كان فى سلطتهم . ثم انصرفوا كل الى دست وزارته . فكدت أصعق وقلت : لاأقلّ من ان يقفوا امامهم موقف المناظرة كل يبدي برهانه حتى اذا ماانتصر فريق رضخ اليه الآخر؟ قال كلا . ولا هذا لان آدابهم تمنعهم عن الظهور بالرأى امامهم . قلت أيعلمون مافعلوه أم يجهلون ؟ فقال بل يعلمون

ويسكتون . وأشار الى بأن أتتبعهم بنظري ففعلت . واذا بهم فى تلك المراكز صور لتصحيح الشكل . وكل مستخدم سواء كان فى المراكز أو الفروع مستشعر بهذا المعنى . واذا الخطابات والجوابات ذات البال صادرة أو واردة جميعها واردة على ذلك المستشار لا يفتى فيها غيره . وناظره منفذ لما يقول قاض بما يأمر . وكذلك الترقيات والتعيينات والتنقلات وبالجملة كل ماينفع أو يضر بالمستخدمين أو بغيرهم بيده يفعل فيه مايشاء. والامة قد أدركت ذلك فتقاتلت على أبوابهم تلتمس منهم قضاء أمورهم . وقد أصبحوا بما وهبهم أمراؤنا من النفوذ يقيمون الناس ويقعدونهم. والناظر كما قيل :

الارض تعلم انه متصرف  من فوقها وكأنه من تحتها

أمير فى منصبه لا تصدعه عامة الناس . ولا يخالجه أدنى وسواس. يلعب نهاره فى سبحته . أو يقلب فى علبته . لا يهمه الا قضاء سويعات الاجتماع مع أولئك المستشارين على خير . لا يعرف طعم البوس . ولا خشونة الملبوس . يرتاض طرفى النهار . على شطوط الانهار. وينام الليل مع الحور . بين الترائب والنحور. وينصرف عند المقيل . الى العارض الهطيل . فى ظل ممدود . وطلح منضود . وماء مسكوب . لا يعنيه من ليس يعرف لنفسه قرارا . ولا يذوق النوم الا غرارا!

تقارع أبطال ابن خاقان ليله  الى أن بدا الاصباح لا يتلعثم
فيصبح من طول الجلاد مخبلا  وكان قديماً دهره يتنعم

وقد وسعوا لهم المجال فاتخذوا لانفسهم لمعالجة سآمة البطالة عنهم حرفا غير هيئة الحكم والحكام . فدخلوا فى كل شركة بسهم وفى كل جمعية بقسم . وقالوا فى أنفسهم: قد فاتتنا عزة الحكم . ونفاذ الامر . وصولة الخاتم.

فلا تفوتنا الثروة. ففيهم المتجرون والمزارعون والمرابحون. والمرتهنون. والدائنون والحكومة كأنها تراث رجل مات عن قصر تتلقفه أيدى الطامعين من كل طرف فهما وجدوه أخذوه

قلت ويلك ماهذا الذى أراه ؟قال هذه هيئة الحكومة . قلت يالله العجب . قال لا تعجب فمتى عرف السبب . بطل العجب

اعلم ان الحكم فى هذه البلاد كان لحد سنة ١٨٧٧ حكماً استبداديا محضاً يرجع فيه لرأى الحاكم المطلق المتولى عليها . وانت تعلم ان الحاكم المستبد يمتنع بوجوده أمور ثلاث هي من أعظم أسباب ترقي الامم .أولها. الظهور بالرأى خشية أخذ القائل بما قال .وثانيها الظهور بالاجتماع خشية تفريق القوم.وثالثها الظهور بالمال خشية المصادرة.وقد ابتلاها الله سبحانه وتعالى بنفاد قدره وقضائه بحاكم مثّل فيها هيئة الاستبداد تمثيلا جمع عليها به صنوف البلايا والاكدار حتى أدى مافيه من القسوة والسطوة لخوف أرباب النهى والأمر منه أركان دولته عن التعرض بالنصيحة اليه فضلا عن عامة رعيته فعدمت الأهالى فى مدته أسباب التقدم الحقيق ولم تتمكن من ان تتخذ لها طريقاً للاصلاح فى حين ان كل أفعالها كانت مؤدية للهلكة وصيرورتها الى الخراب الذى صارت فيه الآن فهو الذى أكره الناس على الخروج من ديارهم والتشبه بالاجانب من كل جانب.وهو الذى أدخل فى البلاد عوائد غيرها وحمل اليها ماليس منها وأزال عنها ما كان فيها فاضطربت ولم تستقر على حال . وهو الذى حسن للامة هذه التقاليد وفتح لها باب الاستدانة والاستقراض الذى مكن الاجانب من أموالها وأملاكها.وهو الذى أزال خمار الادب عن الوجوه وساعد على انتشار الموبقات من كل طرف

وأجرى بحور الخمور وسير مواكب النساء متبرجات فى عموم المنتزهات حتى فسدت الاخلاق وتقطعت روابط الادب والحياء . وهو الذى خرّج البلد وأهله الى هذا الحال الذي تراه يسر الجاهل مرآه ويحزن العاقل منتهاه

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد انتهى أمره بأن اكرهه الدائنون الذين أصبحوا ملاكا على دفع ما عليه فلما ماطل اضطروه للاستقالة وقد كان. فورثنا عنه فيما ورثنا هذه الهيئة بالاساس الذي وضعه باجماع آراء أصحاب المال والنقود فى سنة ١٨٧٨ وتركبت هذه الهيئة من تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون منهم واحد تضاف اليه الرئاسة . والحاكم الاكبر يحكم بهم ومعهم وجعل لكل نظارة فروعا فجمعت هذه الهيئة أوصال البلد . فمنها نظارة تتبعها المديريات والمحافظات. ومنها ما يتبعها محاكم متعددة تحكم فى درجات مختلفة. ومنها ما يتبعها الجاسوس وجند البلاد. ومنها ما يتبعها بث العلوم والمعارف والفنون والصنائع . ومنها ما يتبعها التحدث على الاراضى من جهة الرى والسقى وفتح الخلجان والترع . وهذه الهيئة هى موضع الامر والنهى فى كل هذا فالقابض عليها قابض على جميع تلك الفروع بحيث لا يقع فيها الا ما يريد

فلما تولى بعده من تولى أبقى الادارة سائرة على هذا الحال وزاد فى التحبب والتقرب الى أولئك الاجانب بان ضمن تنفيذ مقاصدهم سياسية ومالية بلا معارضة وأراد التقرب لهيئة الامة ليقال انه مخالف لعمل من قبله فمنع الحجاب وسهل المواصلة بينه وبين رعيته ورفع الكثير منهم الى المناصب بالرتب الرفيعة .

وأبطل قاعدة القضاء القديمة وقنن لها القوانين المنتزعة من قوانين الدول الاجنبية

وأباح القول للناس بما شاؤا فنشأ عن هذا الانقلاب السريع مفاسد جمة لم يتأت معها الوصول للغرض المقصود كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى. وجاء من منع الحجاب وكثرة التردد انتقاص السلطة والاستهتار بها وسهل على القوم أن يروا الحاكم ويراهم ويكاشفونه ويكاشفهم والامة على حالها من النقص لم تفق من صولة الاستبداد الذى صرعها فطاشت . وجاء من رفعه أقواما بالشهرة والاستحسان خفض تقاليد الحكومة وألبس التاج من لا يستحقه. وأصبحت الهيئة كعود قصب السكر أسفله خير من أعلاه . وجاء من اباحة القول أن قال كل انسان مايشتهي فاضطربت الافكار وأصبح الكل أساتذة . والكل أفاضل. والكل مربين . وقامت بين الكل نقطة التنافس بالوطنية والتفاخر وهم لايدورن معناها . وجاء من تقنين القوانين على المنهج الاوروباوى الاستهتار بجانب السلطة والدين بمقدار مازيد فيه . وعلم عامة الناس والسواد الاعظم وهم الباقون على فطرة الجهل ونقص الطبائع ان الحكام أصبحوا مقيدين وانهم معهم أمام القانون سواء فاقتصوا منهم بما قدمت أيديهم أزمان كانوا مدفوعين بيد الاستبداد القديم على ظلمهم بعضهم بالحق وبعضهم بالباطل. فاعتزل كبار الامراء والذوات الوظائف لانهم رأوا من العيب وجودهم مع هذا الشرج فى صف واحد . وبعضهم اعتزل الخدمة مستقيلا . وبعضهم تركها بحسب ضرورة الحال لتغيير شكل الحكومة ونظامها وبقيت الهيئة فى حال أوقع التباين بين الاطراف وأصبحت البلدة أحزابا من قديم وجديد . وتركى ومصرى وچركسى وأجنبي. ثم زاد هذا الامر حتى وقعت البلدة في الفوضى التى قضت عليها بالخراب التام العام واستحقت للتأديب بعصى أوروبا التى استنابت عنها الدولة المحتلة لتؤيد سطوة الحاكم التى

انتقصت أو تلاشت وتعيد النظام فابقت الحال على ماهى عليه مدة من الزمن ثم ترقبت حركات الامة فما تنبس بكلمة حتى تزيد فى بسط يدها عليها حتى انتهى الامر بأن تغيير هذه الهيئة التى تراها أو عزلها لايكون الا باتفاق الطرفين .وبما انهم هم الغالبون أصبحت الطاعة ولاشك مفروضة علينا لهم ولو كان فى ذلك مخالفة الحاكم الاكبر ثم مازالوا يتداخلون حتى عينوا لكل هيئة مشتشارا:القول قوله والفعل فعله بل أصبح بمنزلة القيم على المحجور أو الوصى على القاصر وصاروا يقضون فى الامة بما يريدون بغير ان يظهروا بمظهر الآمر أو الحاكم بل يوعزون كما رأيت بما يشاؤون وعليهم الفكر وعلينا العمل وظاهر الامر اننا فى غاية الاستقلال حتى انهم رتبوا فى البلاد مجلسا دعوه بالشورى عاملوه بحديث (شاوروهن وخالفوهن) فيجتمعون وينفضون والله أعلم بما يصنعون ولارأى لمن لايطاع. ويكفيك دليلا على الانحطاط ان أعضاء هذه الهيئة يحضرون لها وهم يجهلون ماسيتذاكرون فيه حتى كان ذلك فى جلسة اشتملت على الاقرار على فتح بلاد وسحق عباد كالسودان. وانى سمعت أشياء من بعض ماقررته هذه التى تراها ارضاء لهؤلاء أخبرك بها لتمام عجبك واستغرابك ولتعلم انك لوسبرت غور مشاهداتك وأنفذت اشعة أفكارك الى الاحوال الخفية لرأيت داء دويا وفسادا عنصريا آخذين فى ملاشاة وجودها عاملين على اطفاء نورها

صار أبناء البلاد أشد أعوان الاجنبى فهم يجهزون عليها ويسرعون فى ايصال البلاء اليها بما أشربوا فى قلوبهم من العوائد والاخلاق التى جعلت مواطنيهم فى نظرهم ألد الاعداء وأشد الخصوم . وأصبح الامراء أصحاب الحل والعقد من قديم يتسترون كأنما بهم وصمة وذلك من الاباحة

التى وصل اليها أرباب الاقلام فى جرائدهم التى هى على هوى المحتلين وعدم وجود قانون تعتدل به هذه الحرية . لانهم يريدون استئصال الجاه القديم سواء كان من بيت الحكم أو اتباعه ليكون الناس سواسية. فان شذت طائفة لاتجد لها ملجأ غيرهم إذ لم يبق فى الجمهور ذوجاه عظيم تتألب الامة عليه. باعوا ممتلكات الحكومة ومهماتها وآلات حربها ومعتقلاتها ومصانعها ومخازنها والناس صامتون على اختلاف صنوفهم لاينبسون ببنت شفة

تعقد الشركات وتباع العقارات والناس رجلان: شيخ قد قنع بما هو فيه قناعة البهم فلايريد ان يشارك هذا الجراد المنتشر . وشاب من خلفه مناجل المال التى أقامها سوء التسامح فى البلاد من مضاربتها ورقصها وقمارها وغنائها ونسائها وخمرها وخمارها والقوم يأكلون البلاد ويتقاتلون بالعباد ولا حساب ولا عقاب. وكأنى بك غير قانع بهذه الامور تريد ان أريك بعض الذي ذكرت عيانا .

فماذا يقول المحابى فى تسليم البلاد الطويلة العريضة التى قدرت بقارة فرنسا والمانيا والنمسا مساحة . والهند ثروة بعد فتحها بمال البلد وأهله . أو بيع ما كان للبلاد من البواخر التى تمخر فى البحر تمزيقاً للعلم الذى عليها لفك رابطة الاتحاد وعلاقة التابعية . أو تسليم الملايين من الافدنة بما يتبعها من الآلات والوابورات والمواشى والمهمات وقد كانت مورداً لارتزاق الالوف من المستخدمين والمزارعين والموظفين والمتجرين والبائعين . أو ايهاب الاسواق لشركة محتكرة تضرب عليها الضرائب المختلفة بما يريده أصحابها . أو التصريح بانشاء بنك جديد احال ثروة الوطن الى أوراق ستبتلع خزينة البلد ومال أهله وأوقافه حتى لاتبقى فضة ولا ذهب أو عمل خزان

للمياه يجرف بأموال الخزينة ثلاثين عاما وسيجعل أرواح عشرة ملايين من النفوس فى يد آمر : ألقضاء قضاؤه والامر أمره . وستحج اليه الناس كما حجت لزمزم تبتغى قطرة من مائه .أو يبعها كل شئ لهؤلاء الاقوام حتى ملح الطعام . وهذه الامة الخائبة الرجاء فى حكامها الضائعة الآمال فى أبنائها لاتدرى ماذا تفعل ولا تعلم ماتقول .

ضرب اليأس والقنوط أطنابه . وألجم القوم بلجام الخيال فلا تجدنا صحا يتقدم بالنصح فى شئ من هذه المعايب ولا يستوحش منها كأنما مناقشة الاجنبي حسابه ضروب من ضروب القتال . انظر الى قصور الاغنياء والامراء . فأخذت استشرفها وهو يرشدنى عنها بيتاً بيتاً . يقول هذا بيت فلان وذا بيت فلان فوجدت شيئاً يعد على الاصابع وهذا القليل ممن كان من أصحاب الامر والنهى فى سابق العهد بعضهم سئم حال الحكومة والبعض فصلته ثم حسنوا لهم التخالص معها فباعوا ما كانوا يستحقونه من معاشهم حتى لايوجد لهم اسم فى دفاترها الا مع الممولين ولا تكاتبهم الحكومة الا في طلباتها فاصبحوا هم والزراع أمامها سواء . وانقطع املهم وأمل الناس من عودتهم الى الخدمة وخلصت وظائف الامر لمن هذبتهم الحكومة الحالية باخلاق احتلالها وربتهم ورقتهم . ودرجتهم وحكمت بهم ومعهم فيما تريد . وقد بقيت فيهم عوائد البلاد فتراهم يتزاورون فى أخريات نهارهم وبعض لياليهم ولكنهم قصروا الكلام فى هذا الاجتماع على شؤونهم من فلح وزرع لايتعرضون لشئ من هذا الواقع أبدا سآمة فيه أو ضجراً منه كأنما البلد ليست موطناً لهم واذا فرط القول من أحدهم وألم بحكاية اتفق وقوعها من مثل هذه العجائب مالوا به فى الحديث الى حيث يريدون من الكلام على

خاصة أنفسهم وقد رضوا بهذا الفراغ والابتعاد عن العمل مسرورين لقضاء باقى حياتهم وهم متمتعون بها يجدون كل يوم من أساليب الملاهى مايشتهون ومن الاشغال الخصوصية ماليه يحنون امابالانتقال والنظر الى ثمرات مزارعهم واما بما فى منازلهم من دواعى الانس والبشر والاجنبي رضى منهم بهذا الخمول وعبث فى البلاد كما أراد ولا عبث الجراد

وحكام البلاد أوصدوا دورهم واتخذوا النوادي الاوروبية المعروفة بالكلوب مجتمعاً لهم ولم يبق فى المنازل الا قليل من الخدم لرعاية الحرم فمتى توارت الشمس بالحجاب لبسوا مع الافق سوادالاهاب وطاروا كالطيور الى تلك الاوكار. وقد قصروه على أنفسهم فلا يدخله من كان أجنبياً عنهم الا اذا استصحبه أحد منهم ظانين انهم بعيدون عن أعين النقاد من العباد على انهم أصبحوا فى وسط هؤلاء الاجانب فى دائرة انتقاد غير محسوسة لهم يحفظ نقادها الحسنات والسيئات ولا يتغافلون عن أقل الحركات وهم من بساطة أنفسهم قد كاشفوهم بكل شئ من شؤونهم وأمرهم دائر فيها بين المقامرة والمعاقرة والمرابحة والمتاجرة وقليل بالمسامرة والمحاضرة فهم فى كلياتهم لايخرجون عن مساواة أى متمول فيهم ويزعمون ان ماهم فيه هو السعادة التى لاتماثلها سعادة : قيام بحق الوظائف وابتعادعن الخلق وخلاص من الناس

فقال لى صاحبى أولئك السلف . وهؤلاء الخلف .فعلى من تتكل فى انقاذ البلد قبل التلف ؟ وهاك أيضاً أهل القطر عامة . فأجلت بصرى فى البلاد فوجدت أصحاب المظاهر منهم من شغلتهم شؤونهم وبلاياهم عن كل شئ فما منهم الا من ارتبط مع جماعة من أرباب الاموال اما فى ايجار أرض للزراعة واما للاستعانة على اتمام شراء شئ يجاوره ويحادّه . واما لدين عليه دعاه

مظهره لارتكابه حتى ان كل شبر من أرض. له سطر في صك قرض. والمظاهر التي تراها من دور وقصور وخيل وبغال انما هي على حد قولهم (مستورة بالبركة). وعامتهم رضوا بالاكواخ التي هم فيها لا يبالون بحر الشمس وعصف الرياح. يصبح الرجل مع العجول ويبيت مع المهاري ويسرح مع البقر وقد شغلوا عن تحريك عقولهم بتسخير أبدانهم. فترى الفلاح على هذا الحال ولا تضيق له نفس ولا تتولاه سآمة فتحكم عليه بانه الهيكل الذي أفنى العادلين والظالمين من عهد الفراعنة الى الآن وهو باق بنسخته لا يتغير

فلم اكد أعجب الا وصاحبي يلفتني الى العلماء فاذا هم ينقسمون أيضاً الى أقسام: جماعات ادخلتهم الحكومة في خدمتها واتخذتهم سلما لما تبتغيه فاصبحوا من زمرتها يعلمون الحق ويكتمونه وكلهم متطلعون الى الترقي والوصول للمناصب الكبرى

وقسم رضي بالانزواء فهو لا يدفع ضراً ولا يجلب خيراً. وقسم فسح لهم في العيش ولم يتخطاهم عهد الشباب فرحين بما نالوا من علامات الشرف ووسامات المجد. شغلهم التنقل في بيوت الحكام. والامراء العظام. وأهل الثروة دائرين فيها على هوى كل من لاقوه من أهل الحل والعقد ومرادهم من ذلك وظيفة ينالونها ليصبحوا مثل أولئك في نظر الحكومة

فقلت وماذا بقي من أوجه الأمل بعد هذا؟ قال ننصرف الى حيث المجتمع العمومي فنقضي الليلة في منتديات المدينة لترى حال السواد الاعظم وخدمة المصالح وأرباب الاشغال فتتمثل لك شؤون المدنية في هذه المدينة وترى بعد الذي رأيته ووقفت عليه من أمر الحكومة وأمرائها وأغنيائها وعلمائها قوة هذا العامل الذي بطلت في جنبه العوامل

وتعلم الى أى درجة وصل صرف الاوجه عن النظر فى شؤون البلاد والى أى حد قبض على الاعنة والرقاب وهل من أمل للقطر أو رجاء وهل يمكن ان ينهض أحد لتجديد ماأندرس من آثار الوطن أو صوت ينادي باصلاح تخف اليه طلائع الاجابة من أى جهة؟ فقلت الامر لك فصرف وجهى حيث أراد وقال لى أنظر فنظرت فوجدت النوادي مزدحمة بالخلق وكلهم يتطلع لاجتلاء الاخبار وما تم على العالم فى يومه ليكون به من العالمين. وهؤلاء خواص الخدمة مما هو اكبر من العامل وأقل من الحاكم الآمر. فلم تمض لحظة الا وطوائف باعة الجرائد الذين يزيدون عن الخمسين عداً ينادون بها . فقلت هنا العمل ومحط الامل . وانشرح صدرى لانها تمثل فى ظاهر أمرها نهضة أدبية لنفوس الامة لاقبال الناس على القراءة والكتابة بهذا الحد فلم نلبث حتى صار فى يد كل جماعة واحدة منها يقرؤونها بشغف قل ان تجد له نظيرا . الا فى بلاد غرس فيها الاستعداد الفطري وهمت نفوس أهلها بالظهور بهذا المظهر السعيد . فأشرت لصاحبي ان يختطف لنا شيئاً منها وكان ذلك. فأخذت اتفقد تلك الجرائد واذا هى شاملة أبسط الاخبار من جهة الحكومة كاخبار الاجازات والترقيات والتنقلات وأهم الحكايات من جهة البلد كالولائم والمآتم واحتفالات الانكحة والعقود وما شاكل ذلك . ومسرفة كل الاسراف فى أحاديث مجلس لندرا وبرلين ومحاكم باريز وبطرسبورج . مسهبة فى تفاصيل اتحاد الصين مع اليابان معترضة على بعض شروط الصلح بين أمريقا والاسبان . وغير ذلك مما لايهم ولا يفيد ولا يسعد ولا يشقى . والحالة الحاضرة بعيدة عنه بأسره . وجرائد أخر تسب فى هيئة الحكومة غير مشفقة على نفسها لانها تعدت الحد . واستوجبت الحد . لاتبالى بانسان ،

ولا سلطان. حتى يخال القارئ انها موعزة لمثل هذا القدح ابتغاء شئ تناله . فقلت لصاحبي ماهذا ؟ أين نصيب العامي من الارشاد والتنبيه على الفوائد والاشتغال بها ؟ أين الكلام فيما يزيد سعادة الوطن والتنقيب على ماتحسن به أحواله ؟ أين الكلام على احياء الصنائع والتشبه باهل الفلاح فى عقد الجمعيات المفيدة ؟ أين الكلام على تهذيب النفوس والاخلاق واصلاح الآداب والعوائد التى ظهر فسادها والموبقات المنتشرة وسوء التربية التى فشت عاهاتها وازدادت آفاتها وتفاقمت رذائلها والمنكرات التى وقفت فى سبيل تنوير الاذهان فسدت طريق الكشف على البصائر والاضاليل والاباطيل التى نمت سلفاً عن خلف ؟ قال كل هذا مسكوت عنه لاتذكره تلك الجرائد ولا تلم بشئ منه مع انها على ماذكره علماء الوقت أثبت تأثيراً فى النفوس من غيرها لدوام تلاوتها وملازمة قراءتها ولأنها نعم المادة لتفقه الناس وتنبه عقول العامة فضلا عن الخواص

الجرائد هى الاساس الاصلى للتربية الاهلية لان عليها مدار التقدم فى المصالح العمومية المفيدة والمناحج القديمة والجديدة. الجرائد هى المدارس الكلية المفتوحة لابناء السبيل كاشجار فى الطريق مثمرة لايحيط بها سور ولا يذود عنها حارس يتناول من ثمرها الوارد والمتردد . الجرائد ميزان الامم ومعيارها ولكن ضاع عمل وخاب أمل فى غير هذه البلاد الكتاب الذين تنتظر أقوالهم فى صحائفهم . وتسمع رسائلهم فى جرائدهم . وترجى نوادرهم . وتحشى بوادرهم . وهنا الهذيان الساقط والبلايا المضحكة . فقلت له وما هذه الجرائد التى ملات صفحاتها بالمثالب الشخصية كانما هى فى يد محررها (سيف فى يد مجنون) يصول به من غير روية ولا ادراك فزادوا فى الوقوع

فى الاعراض والتطاول على الاحساب والخروج بالشتم والبذاء ؟ الا يوجد فى البلد حاكم يوقف هذا البلاء ويضرب بين الاعراض وبين هذه الحرية الفاسدة بسور؟ فقال ان هذا ليس بالشئ الجديد واحلف لك ان لو جمعت ماقيل فى السنين الاخيرة فى هذه الهيئة وما يتبعها لجاء فى مجلدات ولزاد عما قيل فى اليزيد والشمر والحجاج. فقد وقف الناس على أخبار الدنيا من تاريخها ورواة أخبارها ورأوا مارأوا بأعينهم من أحوالها فلم يقفوا على أدب ولا تأديب من هذا القبيل أبدا. وقد طال المدي وما تأذي المشتوم ولا كل الشاتم والقائل لهذا يظن ان هذا يصلح من أخلاق أولئك المشتومين ولم يعلم انه بفرض تأثيره فيهم فهو على قدر مايصلح من أولئك يفسد من أخلاق آخرين بل يصد القراء عن اقتباس مافى الجريدة من الفوائد للاعراض والفتور الذى يتولى النفوس عند مطالعتها فتبور بذلك المصلحة العامة المقصودة منها. ثم أطلعني على جرائد أخرى تركت كل هذه المناحى واتخذت مسلكا آخر لايعلم كيف هو. امتلات بشئ من الخلط والهذيان والتكلم بألفاظ لم يسبق لها ضريب فى شئ من بلاد الله ولا سمع بأن مثل ذلك يطبع وينشر وتباع منه الالوف فى كل يوم الا في هذه البلاد التى هى بلاد الغرائب والعجائب فسألته عن حال محررى هذه الصحف بين رجال العلم . فقال ان فيهم من ترتفع بهم مقادير الجرائد ولكن المتطفلين زاحموهم فاسقطوا المنزلة وأصبحوا عقبة في طريق تقدمها . فهى محتاجة لاصلاح حتى تكون بمنزلة المربى لهذه الامة المضللة التى طفرت حتى تخطت المقصد . وفاتت موضع الاصلاح وتعدت محل الفائدة الا من عصم الله . وكيف لايكون ذلك وفى زمرة المحررين أميون لايعلمون الكتاب الا أمانى

ثم استلفت نظري نحو القوم فاذا بحرية فى الالفاظ تكاد لاتحلم بها أوربا ظاهرين فيها بمظاهر التقليد : فمن قائل فى الأديان. ومن متكلم فى مقام مولانا السلطان. ومن ناقض رابطة أحكمت. أو قاطع علاقة أبرمت. وكل هذا ضلال أشربوه فى قلوبهم من سر الاحتلال. ولمحت عينى فيهم حب التقليد حتى فى معاورة الانفاس ولو فى الخطأ واللحن بحيث لاتجد كلمة مستحدثة الا وهي دائرة فى خطابات جميعهم كانما هى تركيب جديد

فأخذنى العجب من حال أولئك الانام كما عجبت من حال أرباب الاقلام وقلت لصاحبي: اذا كان رأي العلماء ان تربية الكبير أمر عسير جداً لان مناشئ العمل من العقائد والصفات تكون راسخة فيه بالفعل فيصعب اقتلاعها وانتزاعها وقد طرأ على كباركم من المعاشرة والتقليد كل هذه البدع والاهواء مالم يطرأ على سواكم من أهل الارض حتى حجرت الابناء على الآباء بدعوى السفه والتبذير وهم أسفه منهم فما حال صغاركم الذين يتربون فى حجورهم الآن . ويغذون بدرهم طول الزمان . ويندفعون الى كل فعل بطبيعتهم من غير تكلف إذ لاملكة لديهم ولا اعتقاد؟ فقال هناك البلاء والويل وموعدنا بكرة الثلاث نؤم فيها حلبة المعارف وميدان العلوم لترى الاساس الذي عليه تبنى والطريق الذى عليه تشاد. وانصرفنا حتى انقضى الليل وأشرق الصبح وطلعت الشمس واذا به يناديني فلبيته ومشى فماشيته حتى جاء الميعاد المخصوص وأشار الى بالنظر فنظرت

فوجدت مدارس متعددة منتظمة منها ماهو للمبتدئين ومنها ماهو للمترشحين

وتلك اسمها المبتديان وهذه التجهيزية. وفوق هاتين مدارس أخرى منها للحقوق وهى التى تدرس القانون الجارى الحكم به فى البلاد ومدارس للطب

وأخري للمهندسين وقد قسمت فرقا فرقا ونظمت فصولا على ترتيب جميل فاقنع نظري هذا النظام الظاهري وكدت أحكم على كل التلامذة الذين فيها بسعادة الدارين والوصول لغاية المطلبين. فقال لى صاحبي مهلا حتى أشرح لك الحال فان الذى رأيت ناقص كما وكيفاً

فاما نقصه كما فلا شك عندك ان المدارس هى المربى العام فى كل أمة والواسطة التى تؤدي بكمالها الى رفع البلاد لأوج السعادة والذى ظهر فى هذه السنة من عدد من تقدم لالتماس الشهادة الانتهائية أى البكالوريا ان المترشحين للامتحان فيها ٢٨٩ تلميذاً قبل منهم ٦٨ فاذا وزع هذا العدد على مجموع الامة المصرية لخجل الانسان من هذه النسبة ولم نشك فى ان هذا العمل مقصود منه سد باب العيش فى أوجه المصريين لان التضييق الشديد فى هيئة التعليم يقتضى ذلك فقد كاد أولو الامر ان يضيقوها فى وجوه أرباب المصاريف فضلا عن القسم المجانى

وأما نقصها كيفاً فلان جميع هؤلاء النظار والمدرسين والخوجات وغيرهم من رجال الدولة المحتلة ووظائفهم فيها علمية فى الظاهر دينية وسياسية فى الباطن. والدليل على ذلك ما نراه فى معاملة هؤلاء الاطفال الذين لم يبلغوا العشر فقد قرروا أن لا يقرأ أحدهم من القرآن الشريف الا جزأ واحداً فقط .ولاجل أن يصرفوه أيضاً عن هذا الجزء عمدوا الى جداول الامتحان فحذفوا منها نمر القرآن وأضافوها على علم العربية عالة عليه حتى لا يجتهد التلميذ فى حفظه لانه لا يزيد فى نمرته ولا يرفع من درجته .ثم عمدوا الى من فوقهم من التلامذة وسدوا عليهم باب اللغة العربية ليميتوها لتتعذر الحياة الوطنية فمنعوا قراءة التاريخ وبقية العلوم الآلية . تأمل كيف أماتوا الهندسة والطب من هاتين المدرستين حتى

أشرفتا على الخراب ولم يبق فى كلتيهما مايكمل عشرين تلميذا. ومرادهم ملاشاة ذلك حتى ينقطع علم الهندسة فينفرد مهندسوهم بالري وغيره ويموت علم الطب أيضاً من البلاد . واغرب شئ ان الملجئ لفتحهما لحد الآن وجود مدرسين فى الطب والهندسة لم تخلق لهم الوظائف المطلوبة . فهم يقتاتون فى هذه الوظائف التدريسية حتى يتم لهم المراد ويتعينون فى مناصبهم المنسوبة لهم وتقفل هذه المدارس . ولقد أحس تلامذة هاتين المدرستين بذلك وبسد باب العيش عليهم فطلبوا الدخول فى مدرسة الحقوق ( لأن المتخرج منها ان لم تستخدمه الحكومة يجد رزقا حسناً من أوجه المحاماة وغيرها ) فحسنوا لهم البقاء بكل الوجوه حتى ربطوا لكل تلميذ جنيهين استبقاء له فى تلك المدارس

أرادوا ان يغلقوا باب التعليم أو يعكسوا نتيجته فيحيلونها من جانب السعادة الى جانب الشقاء فسدوا باب الارتزاق فى أوجه التلامذة فترى ألوفا من أولئك المتخرجين الذين قضوا السنين الطوال فى مدارس القطر وأحرزوا الشهادات بختم الدروس ضاقت بهم معاطف الشوارع وأماكن اللهو معطلين عن الكسب مخلدين الى البطالة التى هى من شر المفاسد. وليس المراد الا ان هذا القطر لا يلبث الا زمناً يسيراً حتى يري رجال مستقبله الذين كان يعدهم للقيام باعباء مهماته وانماء ثروته هم أنفسهم مصدر شقائه ووباله وخموله واضمحلاله

يسيئون من المرء تأديبه الدينى والدنيوى ثم اذا أخذ الشهادة وظن انه قبض على مفتاح السعادة أقفلوا فى وجهه باب العيش حتى تنتهى البلاد الى احدى حالتين: إما تهافت الألوف من المتعلمين الى دركات الذل والمسكنة وإما الاعراض عن طلب العلم كلية واطفاء مصابيحه من البلاد لتعود لقديم حالها وتغشاها ظلمات بعضها فوق بعض

بما ذا يجيب الانسان لو سأله سائل عن أسباب عقم العلم عندنا وصيرورته سبباً للشقاء والخراب وهو عند جميع الامم سبب للسعادة والفلاح وموردة للقوة والبأس والشئ الواحد لاينتج نفعاً فى مكان وضرراً فى آخر

أصبح التعليم عندنا قاصراً عن القدر الذى يمكن الانتفاع به . مقصوراً على شئ من اللغات ونزر من الرياضيات لايتعدى مباديء الجبر والهندسة . وأشياء من آلات العلوم وكل هذا لاينشئ رجالا

صار المراد من المدارس نسيان الدين والعادات فترى التلميذ وهو يجهل مالا يجهله عاقل يدعى ان من فكره ( انه لايمكن النجاح والترقى الا بنبذ الدين لان اختلاف الاديان أضر بالشرق ضرراً بليغاً . وان السعادة الدنيوية لاتتوقف الا على التهذيب ومساهمة الاوروبيين فيما هو انفع واسهل )وقد جهلوا ان الاوروبيين يعهدون بالمدارس الى القسس غالباً وبالجمعيات الدينية حتى يدخلها الوليد بلا دين فيخرج بدين ولذلك فكثير من الاهل والعشائر يتعهدون أولادهم فى الخارج ليحكموا ربط عقيدته . وقد خلت هذه المدارس من الصبغة الوطنية والجنسية لاستبدال اللغة العربية بالاجنبية فى التعليم والاستغناء عن الآداب العربية بالآداب الافرنجية للاعتياض عن المعلمين الوطنيين بالمعلمين الاجانب . وهذه الاحوال غرست فى قلوب المتعلمين اخلاق الأمم الاخري لانهم يتعلمون تاريخ انكلترا ويجهلون تاريخ تركيا ويدرسون تاريخ أوروبا ولا يقرؤن تاريخ العرب . وأورثهم احتقار أمتهم وجنسهم ودولتهم ولا بدع لانهم يجهلون قدرها . وأصبح التلميذ يعلم انكلترا وهو مصرى ويجهل مصر وهو فيها فانسد باب الخير الذى يرجى منه التعليم وانقطع الامل من الحياة الوطنية لوجود هذا العامل العامل على إماتتها . وقد أبطلوا

كل مامن شأنه احياء الشعائر الدينية بتهذيب الاخلاق واصلاح الاعمال وتقوية الروابط الجنسية والوطنية باماتة اللغة العربية وعدم تلقى الفنون بها . وهذه الاحوال على قرب زمن حدوثها قدأثرت فى الامة التأثير الفاحش الذى رأيته وسيكون تأثيرها فى الذرارى أكبر من ذلك وتستبدل آداب الدين بحرية الفسادوالفحش وتقام اللغة الانكليزية مثلامقام لغة البلادويتمزق شعار الوطنية شذر مذر ويصبح زمام الاخلاق بيد الاجنبي فيهيئنا الى مايريد . لم يبق على التلامذة الا التجنس بجنسية المعلمين والمربين . فقد مات الجنس وضاع الاصل الذي يراد احياؤهما واعزازهما بالتربية وقد ابتلاهم الله بمرب (محب لذاته) وهو الداء الذى لابرءمنه لان صاحبه شره فى الافعال لايعرف العفة فيها . جاف لايدرى سبيل التزلف فتراه مضطربا لايدرك جهة الاطمئنان . يفعل ضدالخير لانه هووالحر على طرفى نقيض . يتحبب وهو عدو . ويخاصم وهو محب . ويتفق وهو مختلف . ويختلف وهو متفق . ويحجم وهو مقدم . ويقدم وهو محجم . ويقول حالفاولا يفعل ويفعل متجاهراً

أى ضلال بعد هذا . انك تسأل التلميذ عما قرأه وحفظه فى أي علم كان باللغة العربية فلا يكاد يجد جوابا لاختلاف أسماء البلاد والرجال والوقائع والفتوح عن الاسماء التى قرأ بلغتها ذلك التاريخ . ثم تسأله بالانكليزى مثلافيلوك لك تلك الاسماء باداة يخرجها عن مسمياتها إما بزيادة حروف أو بنبذ حركات أو نقص أداة . فكأنما وجد ليطفئ نور هذا العلم ويحفظ مالا يتعقله كالببغاء سواءبسواء . كيف يقرئ المعلم الاجنبي تلميذه : «ان المسلمين اندفعوا كالسيل يتسابقون الى الكمال وادراك المجد المؤثل ليتقلبوا على الممالك وتوسعوا فى مجال الفنون من العلوم والصنائع وأظهر الله دينهم على الدين كله حتى دخل فى

أقل من قرن واحد أكثر من مائة الف نفس من غير كبير حرب ولا كفاح وافتتحوا فى نحو ثمانين سنة زيادة عما افتتحه الرومانيون فى ٨٠٠ سنة وامتد ملكهم من البحر الاتلانتيكى من المغرب الى تونكين الصينية فى أطراف المشرق وان هذا السلطان دام لهم بالتضافر والاتفاق والاتحاد ومراعاة الروابط الدينية » وهو يريد أن يخسف به وبدينه الارض

كيف لا يحسن المعلم الاجنبي لتلميذه اختلاف الرغائب وتقلب القلوب ومخالفته لاصول دينه وعدم مراعاة جنسية ولا وطنية وهو يعلم علم اليقين انه ان شب على غير ذلك من التفرق والاختلاف وتشتت الاهواء الذى يريده له الاجنبي كان هو أول من يمتاخه من هذا القطر ولا يرضى له بمجاورته له فيه فضلا عن تحكمه عليه .

قد اصبحت الامة افرادا متبددين متفرقين متنافرين متخاذلين لا جامعة تجمعهم أبدا ولا رابطة تضمهم . لا يحن قريب لقريب ولا يرعى حبيب ودحبيب بل انتهى الامر الى الخروج عن البشرية وصارت كفصيلة الاسماك يأكل بعضها بعضاً

ان التعليم الذى نحتاج اليه هو ما يرشدنا الى الحقائق التى منها العمل للوطنيين والمحافظة على اللغة والتأدب بآداب الدين والتألف به كما تألفت قلوب جاهلية العرب وصاروا اخوانا على سرر متقابلين والعمل للسعادة القومية التى منها تكوين الامة . وكل هذا مفقود بالمرة والعلوم التى تدرس باسم الاصلاح كلها بعيدة عما فيه الصلاح والاصلاح

انظر الى هذه الطبقة التى لم تبلغ العشر اذا شبت على هذه الخصال وبلغت مبلغ الرجال ونالت الحرية التامة وبعث بأحدهم الى بلدة اسلامية لا تشك فى انه أول من يقوض دعائم الدين فيها ويزيل معالمه منها . فان لم

تلتفت الآباء الى هذا البلاء المتساقط عليهم والا فبعد سنين يسيرة يقاتل هؤلاء الابناء آباءهم على دينهم ويسخرون منهم ومن عباداتهم

أي شئ أدعى الى التفرقة والبغضاء من أن ينشب الطفل على غير مصلحة بلده وأهله وقومه ويصبح الوطن بين نحل متباينة ومذاهب مختلفة تؤدي الى مناهضة ومناصبة . أمور إذا مر بعضها بالخاطر مروراً يبست لها الانامل وجف اللسان وجمد الخاطر وتبلد الحس ولا يجد الانسان لسائل فيها جوابا

فقلت له لقد أصبح إذاً اصلاح المدارس فى بلدكم أفضل من فتح البلاد لان حفظ مافى اليد أولى من الزيادة عليه ثم ضياع الجميع . فاين الامراء والاغنياء يتوازرون ويتكاتفون ويتفقون على تربية أولادهم الذين سيقيمونهم وكلاء على ماخلفوا ومسيطرين على ماأورثوا ؟هل يسرهم أن تذهب هذه الدور وتخرب هذه القصور وقد أجهدوا أنفسهم فيها طول أعمارهم وأفنوا فى جمعها نفيس أوقاتهم ؟ فقال انهم فى معزل عن هذا . والاغرب ان فى هذه البلدة أوقافا تغل نحو ٣٠٠ ألف جنيه تقريبا جلها موقوف على فعل الخير كالمكاتب والمدارس والتكاياوالخانقاه فهى إما راجعة لتربية صغير أو مواساة فقير أو انتشار علوم أو تشييد رسوم حتى انك تكاد لاتعد فيما رأيت من الابنية العظيمة والعمارات الضخمة التى رأيتها فى ذلك الجانب القديم الا أربعة مساجد جامعة وبعض زوايا للصلاة والباقى مدارس مرصودة على التعليم والتعلم وقد كانوا جعلوا النظر لاعقابهم فتوارثوه حتى انقرضوا وآل أمر ذلك للحاكم الاكبر الذى اقام مقامه ادارة سميت باسم ديوان الاوقاف فباشرت ذلك وصارت تدخل فى خزينتها كلما

اكتنزه أولئك المحسنون وأهل الخير مدة حياتهم وادخروه طول أعمارهم وحرموا منه أنفسهم فى دنياهم لانفاقه على هذه المصالح مصالح الابناء والضعفاء والفقراء وتبدل شرطه بتشييد الابنية والعمائر المزخرفة والانفاق منه على أقارب الاقارب وأصحاب الاصحاب وادخار مايبقى الى أن يسقط عليه أجدل الاحتلال فيلتهمه ثم يقف من هم فيه من الخدمة وينادون بالويل والثبور ثم تتهدم الاثار وتندرس العوائد ولا تقوم بترميمها الا جمعية من الاجانب ترشدنا الى هذا الواجب. ولو أن أحدهؤلاء يود انقاذنا مما نحن فيه لأشار على الاوقاف بفتح المدارس كما أشار عليها بحفظ الآثار وخرجنا من أسر المدارس . ولكن كيف ترجو الخير من غير أهله ؟ . . فأسفت على هذا المال المبدد فى غير وجهه المرصود عليه الذى هو أصل عظيم وغرض شريف

وبينا أنا أتفكر فى هذا الحال قال لى صاحبى لقد صرنا عصر النهار فهل لك ان تنتقل معى بنظرك حتى أريك بعض عواقب الاسراف والتبذير لتقدر المال الذي ذهب فيه مع انه لو صرف فى مثل هذه الوجوه لأغنى وأقنى وجدد وأحيا؟ قلت الامر لك. فأشار الى بأن ألتفت ففعلت وإذا بقصر مشيد تثبت فيه الاحداق يخال الساكن فيه انه نازل فى منازل الرغد والهناء كأن أرباب الحرف تسابقت فى تحلية أبوابه وأصحاب الصنائع تفننت فى تزيين حجره وحظائره حتى تجافى عن مواضع التوسط وقد فرشت أرضه ببساط العز فالصاعد اليه يتدرج فى معارج الجلال . جمع نجوم الهناء والنعماء ورجوم البأساء والشقاء ففاخر بطالع سعده طوالع البروج فى السماء . وكثيرا ماأزرى بهذا النيل عطاء ربه الجزيل ونادى فيه منادى السماح الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل حفت

به روضة فسيحة غناء جعل فى أرضها أنواع المرمر الذى يزري بصدور الغادات ونثر فيها من الحصباء مايروع العذارى الحاليات قد لبست جميع جهاته حلة اسعاد وفاخر قصر سنداد فاذكرنى ماقاله أبو طالب المأمونى من أولاد أمير المؤمنين المأمون العباسى فى وصف قصر أبى نصر

فهنيئاً منها بدار حسوت منـ ـك جبالا من الحلوم رجاحا
ذات صدر كرحب صدرك قد زا د على ظن آمليك انفساحا
يغرس الصيد فى ذراها من التقبيـ ـل غرسا فتجتنيه نجاحا
بفناء نطيل فيه خطى اللحـ ـظ ونلقى للفكر فيه انسراحا
بهوها يملأ العيون بهاء صحنها يملأ الصدور انشراحا
شيدها فضة وقرمدها تبـ ـر قدامتيح من ندالك امتياحا
وثراها من عنبر شيب بالمـ ـك فان هبت الصبا فيه فاحا
مقنعات فيها الاساطين من فو ق صخور قد انبطحن انبطاحا
كل نادٍ فيها قد انتشح الفر ش بثوب الربيع فيه انتشاحا
وأرى بين كل نحيين كالرو ض خليجاً من البساط مساحا
وسقى ماؤه حدائق غلـ ـباً الى ان غدت به ضحضاحا
صبغة من دم القلوب فمن أبـ ـصره اهتز صبوة وارتياحا
ما بكاء الرياض بالطل الا خجلا من رياضها وافتضاحا
شابه النقش فرشها مثل ماشا به ولدانها دماها الصباحا
وكأن الابواب صحب تلاقيـ ـن انفلاقا ثم افترقنا انفتاحا
وكأن الستور قد نشر الطاو س منها فى كل باب جناحا
وكأن الجامات فيها شموس أطلعتها ذري القباب صباحا

والسوارى مثل السواعد كبّت تحتها من أساسها اقداحا
وبيوت كأنهن قلاع مزمعات للنيرات نطاحا
ورواق كأنما بسطت فيـ ـه دعاء أيدى الاساطين راحا
وجنان لو كنت فى جنة النا دوس لم أبغ غيرهن اقتراحا

وبعد ان تمليت منه تقانى لآخر يشبهه ثم الى آخر يماثله حتى امتلأت نفسا ونفسا ووصلنا حد قولهم « الليل أمسى » فانصرفنا الى حيث نقيم وأخذنا باطراف الحديث فسألته عن تلك القصور اذ راعنى منها حال يشير الى انها الآن مستعملة فى غير ماوضعت له لان فى بعضها جثث أموات وفى بعضها حشرات وفى بعضها صنوف من الضيوف. فقال ان أمر هذه القصور لمن أعجب الامور . هذه كلها كانت لملك جحجاح يحكم هذه البلاد شيدها تقليداً للقصور التى شاهدها فى أوروبا الملوك تلك البلاد بحيث لم تدعه اليها حاجة غير ماحدّثه به خاطره من اللحاق بهم فى انتظام الهيئة وحسن البزة بالقصور المشيدة والثياب الملونة والاطعمة المنوعة حتى يقال بانكم انغمستم فى الترف وحظيتم بالثروة ونهجتم الصراط المستقيم وباطن الأمر غير ذلك . قلت والى من صار هذا وغيره الآن ؟ قال الى الحكومة فانها استولت عليها عندما ناقشه مندوبو أوروبا الحساب وأثبتوا ان ماصرف عليها انما هو من مال الحكومة بطرق غريبة واحتيالات بعيدة لاتصل اليها الافكار لانها كلها اختراع وابتكار. فمنها انه لسرعة استجلابه الاحجار التى تشاد بها أرصفة بعض هذه القصور من قرية كذا تؤمر العساكر من جانب الحكومة بالقطع من المحاجر وتنقل الاحجار على السفن الاميرية ثم تقطع قطوع بايعازه فى النيل على البلاد المجاورة لها حتى تغرقها فيهتم رجال الحكومة بالأمر وتسير المراكب من

كل جانب ثم يتم المقصود باخذ ماهو لازم لهـذا الامر الموضوع لاتلك القطوع . فانظر لهذا العمل الذى جاء على حد قول الشاعر

وياله من عمل صالح  يرفعه الله الى أسفل

وقل لى كيف لاتتخرب هذه القصور أو تبور وقد بنيت بخراب البلاد وموّنت بدماء العباد ؟ قلت وكيف وقف المراقبون على هذا السر . قال من الخدمة الذين خالف فيهم قول الله سبحانه وتعالى « ولا تأمنوا الا لمن تبع دينكم » فاستخدم البعيد والقريب من كل الشعوب وأطلعهم على سره فلما سمعوا بقدوم الاجانب مراقبين على الاعمال أخذوا يتقدمون اليهم بالخدم النافعة والدلالة على مواطن الشبه والمغامز التى وقفوا عليها من العمل الذى بايديهم لينالوا منهم حسن النظر فى المستقبل لعلمهم ان البلاد لهم . فكان الاجنبى يحضر للديوان مشيرا الى المبلغ المشتبه فيه رامزا اليه بدفتره وصحيفته ونمرته ولذلك امكن لجماعة من الاجانب لايدركون سر العربية ولا يدرون حساباتها تصفية ٢٠٠ مليون ليره فى أقل من شهرين بحيث لم يتركوا درهما واحدا من غير اظهار جهته ووجهته ومحل وروده ومصدره

ثم ضاقت يد الحكومة عن الانفاق على تلك القصور فباعت أحدها بأقل من سدس تكاليفه لشركة جعلته نزلا للاجانب الغرباء وجعلت أحدهما مجمعا للعاديات واصناف الوحوش وهكذا عاقبة السفه وغاية التبذير

مع ان الاوروبيين الذين جعلناهم قبلتنا فى التقليد وان انفقوا الاموال الكثيره فى تشييد مثل هذه القصور وتزيين الملابس وتحسين الاثاث الى غير ذلك من اوجه المصاريف فانما ذلك جار عندهم على نسبة مخصوصة من فضل ايراداتهم الحائزين لها بالكد والتعب فى ابراز المصنوعات الجميلة والمخترعات

الجمة التى تنتج الثروة الواسعة . ومن عاداتهم انهم لايجيزون الانفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لامحيص عنها. ونفقاتهم على كل الاحوال لاتتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة الاحتياج. وكلها مؤسسة على جلب المنفعة والمصلحة . تدخل منزل الرجل منهم من أى طبقة شئت ترى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعة بلده وبضائع قطره وليس فيه قدر شبر عمر لغير حاجة حتى حديقته . وهو لايشتري ثوبا له أو لزوجته وأولاده الا بقدر العوز . وحلى آل بيته ثلاثة أرباعه من المعادن. وليس فى اصطبله مزيد عن حاجاته . ولكنكم ركبتم الشطط وحملتم الانفس مالا تطيق من النفقات الباهظة. يصرف الواحد منكم آلافاً من النقود ليعمر أرضا فسيحة ربما كفاه عشر مساحتها . ويفرش بيته بأنواع الفرش وتبقى غرف المنزل بلا ساكن يعلو التراب على مافيها من الاثاث حتى يبليه. يتختم الرجل بما قيمته الالوف . ويكون لدى زوجته من الجواهر ما يكفى للايجار والاتجار والاستغلال مستغنى عنه معطل بلاعمل. الى غير ذلك من المصاريف. وأغرب من ذلك انه مدين يتحمل ثقل الدين وثقل فوائده ولا يبيع من هذا شيأ يتخلص به من ورطة الطلب خوفا على مظهره الذي هو فيه . ثم هم بأجمعهم يفضلونكم بأجمعكم فى طرق جلب المال والمنافع وتخفيف اتعاب المعيشة وتحسين وسائل الاكتساب . فتراهم الآن على الطريقة القديمة التى نشأوا عليها من عهد مئات من السنين لايفارقهم الجد والاجتهاد كأنهم فى تلك المنازل المصنوعة من اللبن المفروشة بقصب الحلفاء المعروشة بقضبان الشجر . مع ان هذه التجارات الواسعة والاموال التى لاتفنى تقتضى التراخى والفتور . وأنتم قد تحملتم الانين تحت اثقال الديون التى استغرقت جميع مافى حوزتكم من الاملاك ولمجرد الالقاب الباطلة لايفارقكم الشمم أبداً وقد

استلبوا منكم كل شئ حتى صار من المظنون انه لو استمر الحال على هذه الجهالة والسنة لأخلوا أيديكم من الزراعة أيضا لوجود من يحسنها منهم سواكم

كل هذه الجهات التى خربتها افكار الجهالة وثلمتها يد البغى ورثها الاجنبي وهو يستخرج منها الكنوز بحكمة ويفجر منها الانهار والينابيع بتدبيره وقدرته فيجنى ونحن الغارسون . واذا سمعنا صوت منتقد لافعالنا هذه نغالط الحس ونقوم بانكار البداهة ونثبت له ان هذا الاجنبي لاسطوة له ولا قوة وهو غريب دعته الحاجة لطلب الرزق ونحدث خواطرنا باننا أرفع منه شأنا واقوى منه يدا وان مساواتنا له فى الحركات والسكنات تشهد اننا وهو على سواء فى نهج الصراط المستقيم . ونظل ونبيت على هذه الاوهام ويصبح ويمسى على هذه الحقائق التى يريد الوصول اليها فلا يتم شوط المسابقة الا ونحن فى هذا الميدان مخذولون . ترى الاجنبي كذوبا مرائيا شرسا أحمق خائنا ماكرا فاحشا متفحشا سبابا لعانا منغمسا فى كل رذيلة كأنما هو مستخرج من حمأة الرذائل ولكنه فى نفع نفسه وبلده وأهله وملته ووطنه صورة من صور الكمال ونسخة من مكارم الاخلاق قد توصل مع هذه المبادئ المتناقضة ان يقنع أهل البلاد التى دخلها ان الاصلاح لا يتأتى الا على أيديه وأيدي اخوانه وان قطرا لم يحتلوه محروم من المدنية ورفاهية العيش . ثم لا يزال بهذه الافكار معهم حتى يذللهم ويروضهم ويستعملهم استعمال السوائم من الانعام ويقنعهم بان السعادة لا تنال الا على يديه بهذه الطرق . فاذا دعتنا دماثة الاخلاق ولين الجانب الى اتباعه لا نلبث ان ننكشف عن أسوأ الاحوال ونراه سيدا علينا بعد ما كان خادما لنا

فقلت له بئس ما وصلت اليه هذه الأمم : تجريد وتقييد . والله لقد اثقلت

كاهلى بهذه البلايا حتى اصبح لكل بلية و خزة فى قلبى وأظن ان هذا المصاب لا يماثله مصاب أبداً وهو ان يصبح الوطنى عونا للاجنبي وعتاداً على امتلاك بلاده يمهد له الصعاب ويزيل من امامه العوائر والعقاب ويسهل احتمال سلطته على النفوس

أفلا يوجد فى هذه البلاد علماء للوعظ أو حكماء للنصح فينهون عن ارتكاب هذه المنكرات أو ان الكلام أصبح لا ينفع ولا يفيد . فقال نعم ان عندكم مدرسة كلية دينية ولكن الكلام كما قلت أصبح لا ينفع ولا يفيد . وسبب ذلك ان هذه المظاهر استعملت لغير ما وضعت له. فأصبح العالم الذى كان يهتدي به فى ترك البدعة والعمل بالسنة يستأنس باستظهاراته واستدلاله فى انتشار البدع حتى استفحل الامر وأصبح ما كان يستعمل للضرورة مباحا غير محظور . ثم فشا الامر فصار عادة مقبولة وهكذا حتى دخل فى الدين ما ليس فيه او أغفلت أحكامه وقل المذكر بها فأصبحنا كلنا سابحين فى بحار الخطأ « ضعف الطالب والمطلوب» . ومع هذا فاذا شئت أن تؤم هذه الجهة تبركا بها واستطلاعا لما فيها فموعدنا بكرة اليوم بعد القيام من النوم. فقلت أجل ثم افترقنا للمنام وما زلنا حتى تبلج الصبح ووضح فانتبهت واذا به ينادينى وهو على تمام الاهبة والاستعداد فأجبته ثم لفت وجهي جهة المقصد وقال انظر فنظرت واذا بجامع كبير رحب فسيح احتوى على مساكن طيبة ومنافع كثيرة وجمع عظيم من الطلبة الذين يقصدونه من بلاد القطر أو الامصار المشرقية فاذكرنى هذا المشهد الجليل حال مدارس العرب التى كانت تنسل اليها العلماء والطلبة من كل حدب كمدارس البصرة وبخارى وقرطبة ومراكش وفاس ومدرسة بغداد التى كانت تجمع ستة آلاف رجل بين معلم ومتعلم

مر على ذهني ذلك العصر السعيد النضر الذى كانت فيه علماء العرب منبثق أنوار العلم ومدارسهم متخرج العلماء والفضلاء والفلاسفة والكتاب . وتمثلت لى مدرسة قرطبة التى أمها البابا سيلبستروس الثانى الذى أدخل الى أوروبا معارف العرب والارقام الهندية وأثار الحمية فى أهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانكلترا فقصدوا الاندلس وتعلموا الرياضيات والهيئة والطبيعيات والكيماء والطب وما يتبعه والفلسفة والجغرافية والزراعة . ومن الصناعات علم عمل الورق والسكر والبارود والخزف ومعرفة تنمية وتربية دود القز وغير ذلك . فقلت فى نفسى هنا الكنز المدفون

وأخذت أسرح طرفى فى مناظره فوجدت بعد الامعان الدقيق ان سلسلة الشعور بينه وبين الامة مقطوعة غير متصلة الحلقات. فان جهابذة هذا المكان غير مدركين شقاء الامة وتعسها. ولذلك لا يشتغلون بما فيه رقيها وسعادتها. والامة جاهلة بأن هذا المكان قبلة مجدها وفخرها وان ارتقاء المدنية فيها انما يكون بارتقاء العلم . بل تشأفيها سآمة وضجر منه حتى أصبح فيها من يعتقد ان صدمة التأخر التى صدمتهم لم يكن مصدرها الا هذا المكان فاسفت وقلت

أتى الزمان بنوه فى شبيبته  فسرهم وأتيناه على الهرم

نعم أتينا الزمان وقد زال من الشرق ركن التربية والتعليم القائم عليهما بناء السعادة والعاملان الرافعان كل أمة الى قمة السعادة. أتيناه وقد أهمل العلم النافع الذى يمكن ان يستمد منه القائم على الامة تأديبها وارشادها الى جميع لوازمها ويحقق لها وجوه منافعها حتى تنتهج مناهج الفلاح

فقال لى صاحبى ما أسرع ما انكشف لك الامر! فقلت لانك لم تعرج

بى الى هذا المكان الا بعد ان قضيت معك أياما بين الامة وأدخلتنى فى غمارها وأريتنى اسرافا وتبذيراً وسفهاً وتبديدا وحسداً وسوء خلق وتنافر وخروج عن حد الدين وارتكاب لكثير من الجرائم والفساد وسوء ادارة وقلة تدبير. ولم أجد هنا شيئاً من موانع ذلك أبدا بل وجدت الامر بالعكس .فان سكوت هؤلاء الاجلاء عن ذلك ادى الى رفع حجاب الحياء بالمرة. وكأن من فى هذا المكان بالنسبة الى هؤلاء المتمدنين جماعة من أهل العصر الاولى تطل على هؤلاء القوم من شباك والا فكيف يصح مارأيت

ماذا يفيد الترقى والتسلق على سلالم النحو والأمة هاوية فى مهواة الفناء؟ كأن المتصدرين للتدريس غير واقفين على مقدار ماأضاعته الامة من الجاه والمال وما ابتذلته من النفوس والارواح وما صارت اليه من الفساد فلا يزالون فى جدال على خلاف بين المتون والحواشى والامة تلعب بها الاهواء كأنهم يجهلون ان الامر غير واقع بهم ولئن فرت منه الآباء غير لاحق بالابناء

وجدت عدم مجاراة للامم فى شئ أبداً من العلوم العامة الجديدة التى هى فى الحقيقة مأمور بها بعد علوم الدين محثوث عليها بآيات التفكر والتذكر والنظر فى آثار الامم وأخبارها وآثارها والاخذ بما أخذوا به من الالتفات الى لب اللب والجوهر الفرد من كل علم. فرغوا من تلك الاقيسة القديمة والاستنباطات المتأخرة وأخرجوا أمرهم من القوة الى الفعل واستخدموا كل شئ فى العجائب والغرائب حتى استجلبوا النفع من أرجل الحيوان بما لا يقل عن يد الانسان وجمعوا بالطرق الحديدية أوصال الارض جمعاء وجعلوا بالتلغراف لكل بقعة منطقاً وسمعا وبعد فى القياس أن يكون مستقبل الزمان كماضيه أو ذاهب الدهر كآتيه اذ الزمان أبو العجب وقد أتى بما ليس على الخاطر وأخرج

فوق ماتكنه السرائر والضمائر

دهشت دهشة الخائب أمله الفاسد عمله لانى أصبحت فى حيرة ليس فى قدرتى تجهيل العلماء ولا تهجين المدرسين الاجلاء. وخفت أن يصل بعض الكلام الى هؤلاء الاعلام فأعد مستهينا بهذه الطائفة الشريفة التي علا افتخارها ونما مقدارها. فقلت لصاحبي ان هذا المكان مما لا يقدر أن يحكم عليه الانسان الا بلسان واحد منه يخبرنا عنه. وانى أريد ان افتتح حديثاً مع أحدهم لاعلم هل يري ماأرى وهل يحس بالذى دهم البلاد على فجأة فأهبطها من عظمتها؟ وهل يعلم بمصادر الفتن التى توزعت أهلها والاحن التى تقاسمتهم ؟وهل يرى أنه من الممكن رجوع الامة الى رشادها واتخاذ سبيل تسلكه لسعادتها فتصل الى ماترجوه من الترقي والحضارة؟ فأعنّى بحياتك على ذلك . فقال هذا مطلب عزيز لان الانقلاب الفجائى الذى حدث فى هذه البلاد أحدث دوارا فى الافكار والعقول فاصبحت ترى المتحرك ساكنا والساكن متحركا وأحاط بها الاضطراب من كل جهة فصارت فى أعمالها على غير هدى . فالذى أفاق الآن من الامة وتكيفت له الحقائق قليل ومع ذلك فسألافيك بواحد منهم

كأنى سليمان الزمان . وكأن صاحبي ذلك الجان . فلم يرتد الى طرفى حتى رأيت معنا شيخاً جليلا. وعالما نبيلا . وحبرا بحرا. وأستاذاً مثقفاً. وفقيها محدثا. مدركا أقصى مايدركه الانسان فى غايات الكمال فسلم وسلمنا ثم لاحت عليه دهشة من وجوده معنا فى مكان كموضع الزهرة على الفنن الغض لاهو فى السماء ولا هو فى الارض فسكنا جاشه وبدلنا استيحاشه ثم أخذنا بأطراف الحديث فقلت له خبرنا أيها الاستاذ أين كنتم معشر العلماء حينما دهمت أهل المدينة هذه البلايا تحت ستار المدنية الجديدة وذهبت بالبلاد والعباد أدراج

الرياح ؟ ولم لم تحولوا بين هـذا الانقلاب وبين هذه الامة المسكينة الى ان أصبحت فى خبر كان ؟

قال كنا بهذه البلاد ونرى كلما يقع فيها على غير هـدى ولكن لا رأى لمن لا يطاع . قلت وكيف ذلك وأنتم لامناء على الدين النصحاء للمسلمين الخفراء على الذمم الهداة للامم قد أوجب الله طاعتكم واتباع طريقتكم ؟

قال ان الذى جلب للبلاد هذه البلايا لم يعجل بها كما يتوهمه الناظر اليها بل رصد الاوقات . وانتظر الساعات . وزبانيته تجر بالأمة لميدان التشبه بأرسان البشاشة واللطف وتشير اليهم بالتسابق فى مضمار التقليد بوحى الايماء ومغامز الطرف حتى اتصلت الأمة الى باحة التكيف والتمثيل . وأصبحت تتوهم فى كل حركة ان الذى تتوصل اليه من آدابهم هو أصول الكمالات . وان الذى تفارقه من عاداتها معائب وسيئات . ولقد استهوانا الامر فى مباديه وغرنا أن رأينا حاكم البلاد يحنو عليها ويألفها ويعطف على أهلها فمنعنا ذلك من سبرها وتحرى أمرها . لانها كانت فى مبدإ الأمر تتشبه بالقوم من حيث مأكلهم ومشربهم وعوائدهم البسيطة فى خاصة أنفسهم . ثم مازالت هذه الخلال الجزئية تتمكن حتى بدا فى القوم افراط كانت نتيجته طروء أمراض عنصرية على بنية الهيئة الاجتماعية . فلما رأينا ذلك باعيننا وأردنا ايقاف سيرها ووقفنا فى طريقها كانت سكنت لذائذها فى نفوس الامراء والحكام فاصبحوا ناقمين علينا مع أصحابها الاجانب . وقد اشتد الجدال والخصام مرات . كما وقع فى مشروع الامة وغيره . فتوصل الاجانب من هذا المدخل لاقناع أولئك الامراء بان الدين وأهله عاقة فى سبيل التقدم والمدنية . ولا سبيل للوصول الى غاية السعادة الا بمفارقة الموانع التى فيه . واجتلبوا اليهم من بلادهم المعلمين والمعلمات . للبنين

والبنات . وبعثوا بأولادهم لبلادهم وأخذوا بجميع تقاليدهم وادعوا ان ذلك تمدنا على انهم لو تأملوا الدين لشعروا بالتمدن الذى يطلبونه وقد حرموه . واهتدوا الى ميزان العدل الذى يحاولونه وما أقاموه . فصارت الحكام تقصى منا من تراه جافيا . وتدنى من كان مصافيا . وبالمقصود وافيا . والعلماء امناء الرسل مالم يخالطوا السلطان أو يداخلوا الدنيا . ونحن ذهبنا بين الرغبة والرهبة

ولو ان أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

ثم ماذا يفعل العلماء فى الأمة بعد هذا وأئمة الرعايا وحكامهم الذين هم بمنزلة الرأس للجسد . أو القلب للجوارح . اذا صلح صلحت . واذا فسد فسدت . حملوها على نبذ ذلك كله وراء ظهرها . بل قرروا انهم لا يقبلون مستخدما ولا يقرون عاملا فى وظيفة الا اذا كان ممن تعلم اللغات وسافر الى البلاد الاجنبية وكان من حملة كتب التمدن الجديد لبلاده . فوسعوا الأمة سبيل الخروج من عاداتها وتقاليدها وانسوها أوامر دينها . وسرى التقليد حتى كان من أمره انه فتح لها باب اتباع الشهوات واضاعة الواجبات حتى ضاعت مصالح العباد العمومية . والمتأمل فى سير المتقدمين من علماء الملل يرى ان سعادة الأمم كانت ولا تزال مرتبطة باتفاق الحكام والعلماء ولا يوجد هذا الاتفاق بينهما الا اذا اتصف كل منهما بصفة العلم واتسم بها لانه لا يتحد عالم وجاهل

انظر لحال الصدر الاول وتتبع سير المتقدمين من علماء الملة وأخبار الماضين من الأئمة تجد ان الشرف والاحترام الذى كان يؤديه الحكام لاهل العلم على مرأى من الخاص والعام دعا الناس ورغبهم فى تحصيل العلوم فجدوا السير فى سبيله حتى اتسعت دوائره . وعلت فى جميع البقاع منابره . واستنارت

به بصائر العباد . وصلح به أمر المعاش والمعاد . وتناولت كتب العلماء فنونا شتى . فضلا عن المؤلفات التى لا تدخل تحت الحصر فى الاحكام الشرعية تجد مؤلفات كثيرة فى فن الملاحة والفلاحة والرياضة والصناعة والتجارة والعمارة والطب والحكمة والفلسفة والتاريخ وغير ذلك مما يستعين به العالم ويهتدى به الجاهل . فكان العلماء بين الناس كالاهلة فى السماء تنبعث أنوارها على سائر ارجائها . وبسبب ذلك تألفت الطباع وزادت قوة الامة وقويت شوكتها وتمت سعادتها واتسعت دائرة ثروتها . وكفى بالخبر المأثور دليلا على ما أقول ( يزع السلطان مالا يزع القرآن )

وانى لا أخفى عليك ان من سوء حظ المسلمين ان فساد الخلفاء والامراء فى دولتهم يتبعه فى الغالب فساد العلماء الذين يرجى منهم فى حالة الاعوجاج والخلل والعلل تقويم المعوج . وبدلا عن ان يظهروا بمظهر النصيحة يساعدون أولئك الامراء باسم الدين على كل أمر حتى انه لا يروج فى سوق العلوم الا ما يروج فى سوق الخلافة والأماره . ولولا ان الحال كذلك لهمت طائفة بتنفيذ نصائح النصحاء ولم الشعب المتفرق وقطع دابر التشيع الذي شق عصا الجماعة ورمى المسلمين بالانقسام

ولقد رأيت بعينك كما سمعت بأذنك ما حدث عند ما وسد الأمر لغير أهله وتولية السفهاء أمور الكرماء من النفور والتباعد بين الناس حتى تعدى الاسافل على مقام الخلافة وبدأ تفريق الكلمة واحتقار الاحكام الشرعية وما انبنى على ذلك من تقهقر العلم وفقد أهله حتى نشأ من كل هذا تصور الدين على غير صورته فانهدم أساسه المؤسس على العلم والعدل وهما اكبر دعائمه ومالت الناس الى التمدن الصورى الذى جمع البغي والظلم وقهر العباد وفرق اجتماع طوائف الأئمة المبنى

على الرضى والاختيار وانقطعت الفوائد التى كانت تستمد منه وتم جميع الافراد من جليل وحقير . وشتان بين زمان استنارت فيه البصائر وكثرت فيه العلوم والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض أهل الاسلام واندرست فيه العلوم ولم يبق من الاحكام الا الرسوم. والكلام فى هذا المعنى طويل وفتح بابه الآن لا يفيد

فقلت له ان هذا لا يخليكم من مناقشة الحساب فى موقف السؤال . لانكم ان تخلصتم بهذه الاعذار من عدم تقويم الحكام . فماذا تقولون فى الرضا بالبدع والاباطيل والاوهام والاضاليل التى زعمتها العامة انها من أصل الدين وهى من دسائس اعدائه . فان سكوتكم عنها عدّ إقرارا عليها وكانكم لا تعلمون ان هذا مما يؤدى للحط من شأنه والتفريق لاجزائه والنقض لبنائه . وانى لا أذهب بك بعيداً ولا أدعوك لابطال الزمر والقمر واراقة دنان الخمر من محال الأجانب . فان ذلك مما يشق عليك ولكن ارسل طرفك الى شكل الموالد التى يقيمها المسلمون باسم أولياء الله وهى من أشد ما تبلغ به النكاية فيهم حتى أصبح الدين بها مثلة وأى مثلة : نزل به أهله الى الحضيض وأحاطوه بالضعف وألزموه السكون وألبسوه ثوب الخمول والضعة وهو دين العمل والسعي والطلب والكسب والكد وتطهير النفوس من أردان الباطل . ان المسلم ليلتهب قلبه غيرة وهو يري سير الدين على غير وجهه . وأعجب ما فى الامر ان الذين يقيمون هذه البدع يدعون ان فيهم مزيداً عن المسلمين لانهم يفعلون ذلك من وراء ستار الورع والصلاح وهو التصنع والخداع بل النفاق والرياء

عمروا موضع التصنع فيهم ومكان الاخلاص منهم خراب

فان لم يكن فى قدرتكم ازالة هـذه المنكرات باليد فباللسان: أذيعوا فسادها وأشهروا أمرها. ما هذا الكأس الذى شرب به المسلمون فتساووا به فى الضعف والانكماش والتقاعد والتقاعس والرضاء بالهوان والذهاب بالدين. وأصبحوا وليس فيهم من يقول حقا ليزهق باطلاً وذلك أقل مراتب العلماء

أى انسان يكون له من العقل أدنى زاجر ورادع ولا يمنع أخاه عن اقتراف المنكر ويذوده عن ركوب الأثم ؟

أيليق ان تكون هذه الموالد موضع تلاقى العلماء والفقهاء وهى على هذا الحال من ارتكاب الفجور ومعاقرة الخمور واغضاب الله سبحانه وتعالى وسيف الشرع فى غمده لايشهر ولا يجاهد فى هؤلاء القوم حتى التصقت هذه المعاصى بجماعة المسلمين أى التصاق ونكبت به الاجنبى وبكت ؟ وكيف لا يفعل وحلقات الاذكار فى ازاء حلقات الحانات .. ومجالس الخمر والزمر فى جوار مجالس القرآن وحفلات الأذكار . وكل جماعة فى شطح وتواجد وتغن ونقر بالدفوف وعزف بالصنوج واصوات المزاهر . هل من اخلاص النصيحة للمسلمين ان يحضر جماعة العلماء هذه المحافل ويأكلون فى ولائمها ولا ينهون عنها ؟ اليس من المقرر فى كتب الدين ان هـذا كله ارتكاب لما نهى عنه الشرع الشريف ؟ ومعلوم لكم ان القائمين بهذا يستعملونه وسيلة لقضاء اغراض دنيوية

اتعظ علماء الامم من دهرهم « ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيح » :

ادركو حقيقة احتياجهم لترقى الهيئة الاجتماعية وبقائها فى هيئة سمده فاوضحوا لها أقرب السبل الى خير المناهج وأحسن المقاصد وطهروها من

بواعث الضعف حتى لم تبق فيها جرثومة من جراثيم الفساد فارتقت وترقت. ولو ان بعض الزمان الذى يفنيه علماؤنا يقضى فى شئ تحيي به الامة وتسعد لرفعوها الى أوج الكمالات فى عهد قريب

فما الحياة بأنفاس نرددها ان الحياة حياة الفكر والعمل

يعجب المتأمل للدين الذى أخرج هذه الامة العربية من البداوة المحضة الى المدنية الكاملة وأخضع لها الممالك والبلاد والعباد فى زمان قريب كيف يكون مدعاة لانحطاط هذه الامة فى هذه الايام ...

فقال لى أراك طوقت معاشر العلماء بالذنب وأحطتهم بالخطيئة من كل ناحية كأنك تجهل ارتباط الامة بالحاكم أيضاً، وان العلماء والحكام من مجموع الامة بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الانسان. فصلاح حال العلماء والحكام يصلح حال الامة وفساد حالها مفسد لحال الامة بأسرها. وسمعت منك انك رأيت فى الامة كذبا وزوراً ورياء ونفاقا وحقدا وحسدا وأشباهها من الرذائل فاشية ولم تتكلم مع أمرائها وحكامها بشئ أبداً وتشدد النكير عليهم. على انك تعلم اننا عزلان لانملك من الامر غير النصيحة ونعتقد ان صلاح الامة بالحكام اقرب من صلاح الحكام بالامة. لان فى الاول القدرة التى تحمل الامة على فعل ما تريد منها طوعا أو كرها وفى الثانى مافيه من الزمن الطويل حتى يتعدي أثره للحكومة فان كنت تريد الاصلاح لم تستصرخ الحكومة أو الحكومة والامة معا: فان لبى الدعوة كلتاهما وقع الاصلاح الذي تيأس منه والا فأسمع السامع ونبه الاهم

فقلت له انما أريد ان أنادى حكامكم بلسانكم وأسمعهم ارشادكم والا فكيف يمكن لى وأنا غريب ان أبلغ بنصيحتى ما أريد وكل رئيس من رؤسائكم له

مصانع تنصب له تماثيل المدح والثناء وتنشئ له اساطير الشكر والدعاء حتى انهم أصبحوا وعلى أعينهم غشاوة من ذلك لا يكادون يبصرون ما تحت أقدامهم فضلا عن تقدير مراكزهم

قال وماالذي تريده منا بعد الذى ذكرت ؟قلت أريد منكم أن تتعقلوا الوقت الذى أنتم فيه لتعلموا ان حرية التعليم والتصنيف والتحرير والطبع والنشر والخطابة وتأليف الجمعيات بأنواعها الحاصلة الآن فى بلدكم لا توجد ولن توجد فى بلد اسلامية . وهذه كلها من سلالم العزة والترقى فى عموم الامم . وقد رأيتم من حكمة التدريج الذى عوملتم به ان ما أبيح فى أول الامر أتى عليه فى آخره . فهذه الوظائف كانت مباحة فاحتكرت والنقود كانت ميسرة فتعسرت والنفوذ كان ساريا فوقف والحاكم كان ظاهرا فاعتكف . فلم لا تظنون أيضا انه سيأتى عليكم يوم تحاسبون فيه على خطرات القلوب وهواجس النفوس وتجبرون على التعليم الذى يريدونه وتمنعون من الذي تريدون وتندمون حيث لا ينفع الندم ؟أليس من الاولى ان تصلحوا التعاليم الفاسدة وتنصحوا الامة بالاجتهاد فى تعميم المدارس على الوجه المرضى وتقوموا فى هذه الفرصة بما هو أوجب عليكم وقد مكنتم من كل شئ وأبيح لكم كل عمل ؟

فقال لى صاحبنا لا تتعب فان طريقة التعليم المتبعة عندهم كما علمت فاسدة وقد وفد على هذا المكان علماء من الغرب والهند ومن بلاد فزان وغيرهم واتفقت كلمتهم مع اختلاف اقطارهم على ان التعليم الازهرى لا يرجى منه خير للمسلمين اذا بقى على حاله وليس له من فائدة غير حفظ بعض العلوم وآثار السلف حفظاً يحمد عليه والحياة الملية لا تفيض على الأمة من هذا الطريق أبداً . أنت تعلم ان طريقة الوعظ والتعليم منحصرة فى الخطابة وقراءة علم

الاخلاق والاداب وسلوك طريق التربية الحقة. وما انتظمت هذه الاركان في مكان الا انتظم شرف الاسلام . يشهد بهذا تاريخ هذه الامة لمن تأمله واعتبر به. وهذه الاركان جميعها مثلومة في هذا الزمان

ياطالما قيل لهم ان الخطابة والكتابة من دعائم العمران التي قام عليها بناء الاجتماع الانساني وأثبت كتاب الامم انه ما من جمعية ائتلفت ولا مملكة تألفت ولا ديانة انتشرت ولا معاملة شرعية تقررت الا بهذه الآلة التي لها في النفوس تأثيرا الترغيب والترهيب والانذار والتبشير. والصناعة اللفظية وطريقة الانشاء وسبك المعاني في قوالب الكلام بالتأثير يريده المنشئ متعذرة عليهم مع التأنق والتأني وفراغ البال والوقت. فكيف يتأتى لهم ما تقول من القدرة على الخطابة وذلك مقام شق على أهل الكلام وأرباب النظام

نعم ان الدين مؤيد بروح الله مبلغ على لسان رسول الله ولكن من أدوات تغيير طباع العرب ونقلهم من جفائهم وغلظهم الى التخلق بخصال الكرم والثبات والتحمس وصلة الارحام والرجوع عن كثير مما كانوا فيه سببه القرآن. وذلك لصفاء الروح وكونهم أقرب انعطافا للبلاغة فقامت دولتهم ببلاغة الخطب والرسائل وفتحت الفتوح وقهرت الممالك وتم الخير كله مسوقا بخطبة من خطيب أو رسالة من مجيد. والامثال على ذلك كثيرة حسبك دخول الحجاج العراق أعزل ليس معه الا أرنبة لسانه وتغلبه عليه واخماد نار الثورة منه وكم قلب البيت من الشعر قلباً فأمات صاحبه وقد كان شجاعا أو شجعه وقد خلق جباناً حتى رمى بنفسه في ميدان القتال يتوسط الرمح والسيف ويتناول كأس الحتوف بيده. فاذا كانت استعصت عليهم أخلاق هؤلاء الناس فلم يلينوها بجيد القول ومؤثرات النصائح حتى يتأدبوا بأدبكم ويتعلقوا باسبابكم فتقيموا

ملتكم وقد أشرفت على الاضمحلال وتنالوا فضل مزية كبرى يكون لكم بها الفضل على الناس وتثبت غيرتكم بها على الدين واللغة وتنافسوا الاوروبيين الذين يدعون لانفسهم الكمال المطلق. ولسكوتكم أنتم مال بعض القوم لتصديق هذه الدعوى التى قاربت أن تكون حقيقة فى الاذهان لاتحول الناس عنها أبداً

قال لى صاحبى ان فى الامر لسرا غريبا كنت أظن انه سينكشف لك اذ قلت ان طريقة التعليم عندهم فاسدة فان المجاور بعد ان يقضى خمسة عشر سنة فى التدريس يخرج وهو لايحسن لغة الدين قولا أو كتابة لانه لايقدر أن يخطب الناس كما تريد ولا يكتب بالاسلوب العربى البليغ

قلت وهل يعقل ان أحداً يفهم القرآن والحديث اللذين هما ينبوعا الدين ولا ترسخ فى نفسه ملكة اللغة والقرآن معجزة الاسلام ولا يستطاع العلم بأحكام الشريعة الا بفهم ألفاظ كتابها ولا بد فى ذلك من الآلات التى توصله ويتمكن من الفهم والتفهيم والتلقى والتلقين والتأليف والتصنيف والوضع والتدوين

قال انهم لم يمارسوا علم الأدب بالطريقة التى اتفق عليها علماء الأدب لانهم مقتصرون من علوم اللغة على بعض قوانينها كالنحو والصرف والبيان والمعانى والبديع. فان حصلت لهم ملكة فلا تحصل الا فى تلك القوانين فقط أما ماتريده من الملكة اللسانية فى نظم الكلام فذلك لايحصل من هذه الآلات وانما يحصل من ممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه وتطبيقها على القوانين العلمية التى استنبطها أهل هذه الصناعة

قلت أصحيح أيها الاستاذ مايدعيه عليكم صاحبنا ؟ قال نعم ولكن تنبهت

فى هذا الوقت خواطر وتشكلت لجنة من جماعة العلماء تبحث فى هذه الحالة بطرق شتى وسيتم بها الخير ان شاء الله عند فراغها من بحثها عن قريب .

فقلت له انى رجل غريب وأريد ان لا انصرف من هذا المكان الا بشئ أقدره وأقف عليه . وقد رأيت فيك مخايل من الذكاء والفطنة . فانا اقترح عليك خطابة تلقيها الآن فى ذلك المكان بعد ان ننزلك اليه ونسمع ماتقول . وقد فهمت الموضوع ووقفت على الاصول والفروع لعل الله يفتح بنا بابا مقفلا ويهيئ لكم خيراً كثيراً

فأجاب السؤال وودعنا وأنزله صاحبي وقد كانت صلاة العصر قائمة فائتم بالامام حتى صلى ثم توسط الناس وقام بينهم خطيباً فقال

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« أيها السادة العلماء

الحمد لله جامع الناس ليوم لاريب فيه . وسامع دعاء من يلتجئ اليه ويرتجيه . القامع أعناق جاحدي احسانه والمنكرين . المعروف بالمعروف للعصاة والطائعين . الموصوف بصفات التنزيه والكمال . المتجلى على عباده المخلصين بعين الجلال . أحمده حمدا لاأقدره ولاأحصيه . وأشكره شكر العاجز الذى لايقدر أن يوفيه . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الشفيع الوجيه . وأصحابه الذين ليس لهم فى الشجاعة من مثيل ولا شبيه . اما بعد فياعجباً من ابن آدم يطلب الزيادة وعنده ما يكفيه . ويتعرض لما لايعنيه فيعييه . ويعد نفسه من أصحاب العناية والافضال . وهو من أهل التسفل والوبال . فياأيها المغرور . الذي فتنه الغرور . أيحجبك ماأنت فيه من الغنى عن الموت . ثم يبعدك مامسك من الصحة عن الفوت . كلا ثم كلا . وانما حب الدنيا اصماك وأعماك .

وجعلك لاتتذكر حالك فى اصباحك وامساك . فتذكروا رحمكم الله فقد ناح بالبين ناعيه . ولاح من الموت للعين داعيه . وأتبل الادبار وأدبر الاقبال وستقدمون على ملك كريم . وسلطان عظيم . سميع عليم . فان كان أحدكم سيئاً يخزيه . وان كان محسنا يجزيه . فتداركوا قبل ان يجرعكم الموت كأسه . وتزهق من أحدكم نفسه . ولا يحسن اللفظ ولا يلقيه . وينقطع حبل العهد من فيه . واذا به بين يدى الله تعالى ولم يمهل حتى يقلع لباس التدليس . ولا يتخلص من التمويه والتلبيس . ولا فرار اذ ذاك ولا محيد . من التنكيل والتنكيد . وتنهش اجسام المجرمين والقبحا . باسنان الهوام . وتحرض السنة البلغاء والفصحاء . ويمتد الغرام . ويقول الناس هذا يوم الوعيد . لاتكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد »

فلم ينته من خطابته حتى تصبب عرقاً من الخجل وأرسلت طرفى أترقب منتقداً على هذا الكلام من هؤلاء الانام فلم أجد فيهم شعوراً والكل مجمعون على الاستحسان فأدركت ان هذا منتهى الفهم وذلك مبلغهم من العلم وأيقنت صحة ماقيل وعرفت الامر من غير تعليل فقلت لصاحبى اين السبيل ؟ فقال الى أين تريد ؟ فقلت هجرة الى دنيا ليتبدل المقام . فلفت وجهى فرأيت مجامع شتى أخذت من كل حالة بطرف فتخللناها ونقدناها وأراد الله أن تتجلى لنا هذه المظاهر بمضمراتها فنمر على الحلبة فنعلم ان أحدهم من أهل البلاد وقد جاء الى هنا وجمع حوله الشبان الذى هم زين عصرهم وأمراء مصرهم بعد مابا ع من زرعه لليهودي فلان كذا نسيئة ليبذله فى هذا الحرام يتوصل به لشئ عند بعض الحكام . لانه لاسبيل الا بالتقرب من واحد ممن استعملوهم وسائط بينهم وبين أهالى البلاد لتقريب المراد وأدخلوهم تحت عنوان كاتم السر

وسخروهم لمثل هذا البر. فنظرنا واذا بالمقترحات منهم متوالية والطلبات متتابعة وكلها تأباها نهمة البهائم العجماوات . فمن حلو أثر حامض ومالح فى عقب تافه ومشروبات خصت بالطعام تستعمل فى غيرها وتزيد ضراعلى ضرها . والطالب يحلف بالطلاق ويسقى بالخناق وملابسه تقع على الارض وتداس ويفك حزام القفطان وتتراخى تكة اللباس وتتسع طيات العمامة حتى يلعب زرها ويقع ورد الملح وعلم خبر المال من قبلها. والغرباء ينظرون ويفرحون ويشربون ويطربون . فتركناهم ثم صرنا الى أخري جمعت الشاب والشابة ووسيط ما بينهما اما فتى أوفنية يوكل بتمام المأمورية . وقد استحكمت الشهوة وزادت الجفوة فانكشف لنا ان المسكين خرج من داره بعد رهن أشياء من مقتنياته بالفائدة الفاحشة ليقضى هذا الوطر . والباغية الملعونة لا ترضى منه بالقليل ولا تنيله مايريده من ذلك القبيل . فهو يتلظى على جمر الاشواق وهى تعده بقرب التلاق

فالتفتنا عنهم والتمسنا غيرهم فاذا نحن بآخرين فرغت من بينهم جعبة الكلام ولم تفرغ شهوة المدام فهم يطلبون ويشربون وليس لذلك من سبب غير حبهم لمثل هذه المجامع وكراهتهم فى البقاء مع أهليهم فى منازلهم . غفلوا عن حق الاباء والاولاد وما ينبغى للنساء والامهات فلا أقطع عندهم من ملاقاة أهليهم . فهم يعدون أوقات الغياب فى الخارج ليدخلوا البيوت والقوم نيام . فعجبنا منهم ثم لحنا غيرهم وقد مرت عليهم غادة فاذا أحدهم ينشد للاول

ياعز هل لك فى شيخ فتى أبداً  وقد تكون شباب غير فتيان

فيطربون ويقهقهون ثم ينظرون أخري فيقول غيره عند مرورها ما أحسن قول حسان بن ثابت

لم تفتها شمس النهار بشئ  غير ان الشباب ليس يدوم

فيعترض عليه معترض لانه وصفها بالكبر على انها ليست كذلك ويقول آخر ان هذا على سبيل التأسف أى الاشياء لافناء لها ويستشهد بقول القائل

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لابقاء الانسان

ثم تدور الاقداح وبينما هم كذلك واذا بأمير أجنبي يدخل عليهم فيقفون له ويجلونه فيعلم ما كانوا فيه من حديث الصبابة فيميل بالملامة عليهم لتعلقهم بهذا الباطل ويقبح لهم شعر العرب ولغتهم وعوائدهم ويقول لهم ان معرفة أقل عادات أولئك الغادات تغنى عن شعر حسان ونثر بديع الزمان فيوافقونه نفاقا ويسلمون له رياء . ويظهر ان هؤلاء بعض المدرسين فى المدارس للاولاد والبنات وذاك الناظر عليهم أو بعض مدرسى احدى اللغات. ثم تجد فئة أخرى هى بالملامة أحري فانها فتنت بالمقامرة فهى تضن أو تحاسب على القوت فى البيوت وتدفع فى هذا الحال كنوز المال بلا ملال . ثم نظرنا واذا مراسح الرقص فحش وأي فحش :ظهور بالعورات وخروج بهذا العمل عن جميع الديانات والعادات حتى صار لاجزأ لهم أليق من السحق . ثم استشرفنا غيرها ولا شغل لها الا الكلام كأنما هى مسخرة لنقد هؤلاء الانام فتشير الى أحدهم وتسرد مافعله من بيع الدور وما صرفه فى الخمور وما قامر به فى الحانات وما أكله من حقوق الاخوات والبنات . وتلتفت لغيره وتحصر مقدار خيله ورجله واسرافه فى حوله وحيله فاذا بها أموال تستغرق الكنوز . على ان الامير لاحيثية له تؤهله لمثل ذلك ولا داعى له غير تقليد الكبير فى كل يسير أو عسير ثم تدور حكايات البيوع فى محاكم القضاء وما أخذ منها بالثمن البخس وماذهب فى دين لايذكر وقد كان عتاداً لعائلة كبيرة وما دلس فيه المرابون حتى سلبوه

بغير حق. ثم ذكروا فلانا ومقدار ماوصل ليده من المال وما وصل بعده الى سوء الحال فكان ولا مبالغة فيما قيل فوق المائة الف جنيه أحصاها عداً وأتلفها نقداً على انه لم يظفر من الحياة بثمرة ولا حول ولا قوة الا بالله. فبينما أنا أسمع مايقال واذا بنسوة تخطر امامنا فى حلل الجمال وتستأسر القلوب بالدلال فقطعت خطراتها هذا الكلام وألزمت أولئك الأنام ان ينظروا بسلام. فسارقت معهم النظرات حتى ذهبوا الى حيث يشاؤون. وقد نقل هذا الحال تلك الطائفة للكلام على فشو الزنا فابتدأ أحدهم قائلا ليس لكم حق فى ملامة السكارى بعد هذا الحال فان ذنوب الماضى معفو عنها فى جانب مايفعله الفاسق كما ان هذا لايذكر بالنسبة لما يأتيه الكافر الجاحد. هل يليق بأمة مسلمة ان يكون من قوانينها. ان يكون من ضمن رعيتها هذه العواهر ثم انها تضمن الكشف عليها ليعلم هل هن صالحات للوطئ والنصرانى واليهودى أولا. فيذهب الحكيم المسلم لاخته المسلمة ويقول لها مايقول خدمة لساكنى هذه الديار من الاجانب ؟ فقال له الآخر وهل هذا أفحش من ان تزنى البنت البكر فيفتض بكارتها زان فاسق لقضاء شهوة حيوانية. ثم اذا خافا العقاب دخل كلاهما من باب النيابة واقرا امام القاضى بأن ذلك برضاهما واختيارهما. وبعد ان يشهداه على الزنا يخرجان من باب المحكمة ولا اثم عليهما. أليس ان العاقل ينتظر فى هذه البلاد وقتا تكون فيه البكر التي لم تتزوج فقط بغير بحث عن حقيقة البكارة ؟ أليس انه من أكبر دواعى فساد الانساب وزوال الاحساب مانراه من التهتك وعدم الوقار؟ والله انى لفى عجب من ان هذه الاخطار والدمار تعدها الامة من أسباب الملاذ ! وأى لذة لهذه الحالة ونحن لاتشرق علينا الشمس الا ونسمع عن بيت أظلم من الفقر سراجه. وضاع منه ابتهاجه. أونرى ثروة

بددت. أومكانة شرف هددت .أوتخريرا أوتبذيرا. وقع فيهما الكثير .وسباق الاجنبي والوطني مستمر في حلبة المباسرة والرباة الفاحشة والمقامرة. ولن يفترقا حتى تكون يد الاول مما اكتسب من خير يسرا ونصيب الآخر مما فرط عسراً . بل من كل ماعلقت به صفراء وهذا ظاهر ظهور الشمس باد للناس منه سوء العواقب من كل جانب. وكأن الذين لهم النهى والامر في عالم السبات وليس الا أن تخرج النساء من البيت بالبسكليت وتجلس على البار. لافرق بين الفاجر والبار . وكل آت قريب

وأغرب مانسمعه - وأشار الى حلبة المدارس - ان الدفاع عن النفس والمتاع متعلق بجماعة الشبان : يقولون انهم سيخرجون من مكاتبهم الى مدارسهم ثم ينتقلون الى الكليات ويدخلون من باب الطبيعات ويخرجون من باب الاختراعات في الصناعات والابتداع في الآلات والادوات. ثم يتسامون في البحث حتى تصبح عندهم الديانات متساوية والافكار متناهية ويستوى الحرام والحلال. وينشد قول من قال

ان الديانات ألقت بيننا احنا وعلمتنا أفانين العداوات

ثم يمهلهم العدو ويساعدهم وتعينهم تلك الطباع ولا تخدعهم فيدفعون الضار ويجلبون النافع ويحمون الحوزة ويصونون البيضة وتستقل البلاد وتحرر العباد . فقال له أحدهم ضاحكا ان هذا أبعد من الطيران في جو المحال باجنحة الخيال

أترجو ربيعاً أن سيأتي صغارها بخير وقد أعيى ربيعاً كبارها

فقلت لصاحبي أي دنيا هذه التي نقلتني اليها : قال بقعة المدنية الجديدة. ونقطة الآداب الحديثة. ومركز سراة الامة. ومدار الاحاديث المهمة . قلت:

مارأيت فيها الا غما وهما. والله لو علمت ذلك ماسألتك. فقال ان شئت الى غيرها نقلتك. فقلت: لا والله كفاني وهلم بنا الى حيث نقيم ثم ندبر مانصير اليه بكرة. ونراه غدوة فقال أجل. ولم أشعر الا وأنا فى مكانى. حيث أراه ويرانى ولكنى فى غاية التكد والحزن مما رأيت حتى اني طلبت النوم فلم أجد اليه سبيلا. وكان هذه الساعة كانت فاتحة الاحزان ذانى لم أتغلب على نفسى وأنام قليلا الا استيقظت على صراخ وعويل امتلأت به البلدة حتى ظننت لاول وهلة ان قد دهمها عدو أوهاجمها محارب ثم دققت النظر فلم أجد شيئاً من الدروع والصفائح الا الفضائح والقبائح. فقلت لصاحبي ماهذا الحال؟ فقال هذا يوم الخميس والعادة فى هذه البلدة ان الاحياء لا يزالون يندبون الاموات (حتى يعودوا اليهم) ولهم قواعد مخصوصة وهى ان الميت إذا مات احتفلوا بأتمه ثلاث ليال متواليات ثم بأربعة أسابيع يستريحون بعد ثلاث منهن خميس يسمى يوم الخميس البدال والاسبوع الاخير اسمه خميس الاربعين. وتحتفل الرجال ليالى تلك الايام بما لا يفترق عن الافراح بنفقات طائلة كلها مقصود بها وجه الباطل من الفخفخة والعظمة. ومنهم من يقترض لهذا الرياء بالرباء أو بالصرف من مال القصر أو المتوهين

فقلت لصاحبي أدنى من أى مكان من هذه لأشاهد هذا الحال عن قرب فمعل وإذا بمنزل رحب يدل على مكانة صاحبه فى العز والعظمة مملوء بهذا الصياح والولولة والعويل الزائد والنساء فى الدخول اليه حبل متواصل. وخيط متراسل. الواحدة فى أثر الاخرى من طبقات مختلفة لا يمكن للانسان ان يتصور ابداً بان كلهن أو بعضهن من أقارب هذا الميت أو من خلطاء أهل البيت أو خلصائه وكلما دخلت البيت داخلة منهن يتعالى الصراخ كأنما الداخلة

تزيد فى نشاطهن . ونظرت واذا أشنع العادات وأبشع المبتدعات وأسخط مايغضب الرحمن ويرضى الشيطان من نساء معولات قد خمشن الوجوه ونشرن الشعور وشققن الجيوب وضربن الصدور ولطمن الخدود والنوائح صفوف بالدفوف يهجن الاحزان ويثرن الاشجان ويذكرن كل واحدة من الزائرات بمصابها وما جرعليها الزمن من الاحن والمحن بألفاظ متقنة التلحين تفتت قلب الجماد فتذكر الاطفال لتذرف عين الفاقدات لهن أو المقلات منهن . ثم تترقى الى الصبيان ممن لم يبلغ الحلم لتهيج لوعة التى فتكت المنية بولدها وادوات ختانه موجودة ونوازم مهرجانه مستكملة مثلا . ثم تتعالى الى الذى فاجأته مصيبة فترك خطيبته لتشعل نارا وأي نار على استبدال الافراح بالاتراح . ثم تقول فى الوالد لذي ترك الاولاد يتامى والنساء ايامى وهكذا من مراتب المصائب وأنواع الوفيات من حرق وغرق وموت فجأة وميت لم يدركه الطبيب وغريب لم يشتف من الحبيب

والنساء كلما يسمعن هذا يضربن بأرجلهن الارض وهن دائرات نائحات صائحات باكيات على أشنع حال يستنكره الشرع ويستقبحه العقل والرجال فى أسفل الدار لاناهى منهم أبداً كأنما اعتادت الاذان على هذا الحال . ولا فرق فى هذه العادات بين غنية وفقيرة وعظيمة وحقيرة . ثم أخذ بعض النساء يخرجن الى بيوتهن وكل واحدة منهن حملت معها من أثر هذا الانفعال داء تنغص به على زوجها يوما وليلة من أصناف الاوجاع والصداع . وبقيت فى محل المأتم الفرق التى شأنها ذلك وأخذت الطباخة تشتغل بتحضير الطعام كأنما المأتم فرح وكيس صاحبه مفتوح لهذا التبذير والاسراف حتى أذن الظهر فامتدت الموائد وأضحت النسوة الباكيات آكلات والنائحات ضاحكات واشتغل كل بشأنه حتى انتهت المآكل وأخذ الباقى فى الانصراف ولم يبق

من أصحاب البيت الا خلطاؤه الاعزة الذين كان يجب من بادئ الامر قصر العزاء عليهن .وهكذا أقيمت الموائد للرجال أيضا وما انتهوا منها حتى أذن العصر فوافت القراء وتوافدت الزوار وقامت أشخاص مخصوصة للاستقبال والتعظيم وآخرون للترحيب والتأهيل وغيرهم للاجلاس والتشييع ودارت عليهم القهوة وسجاير الدخان كأنهم في فرح. فقلت لصاحبي أليس لهؤلاء القوم من زاجر ؟ قال نعم : قام من أهل هذه البلاد ناصح ورأى اقتصاد النفقات والتقليل من هذه المنكرات فأثر قوله في الرجال فاقتصروا من المأتم على ثلاث ليال وأبطلوا شيئاً من العادات كانت تفعل أمام الجنائز مما يسمى في عرفهم بالكفارة وهي عبارة عن خبز وتمر توزع على الفقراء. ولكن النساء بقين على القيام بكل الموائد التي منها هذا العويل لمدة الاربعين وفي كل موسم على طول السنين .فقلت العجب العجب أرادوا ابطال البدع فعمدوا الى أحسنها فأبطلوه وجاؤا الى أشنعها وأقروه وليتهم أبطلوا ماللنساء وأقروا ماللرجال

ثم قال وأين أنت من أقبح العادات ! الحمد لله على انك لم تر خروج النساء الى المقابر خلف الجنائز خصوصاً ما كان منها من أطراف البلدة . انى أظنك لاتقوى على مشاهدة هذا الحال . وكيف تفتح العين على مئين من النساء المعولات وكلهن قد صبغن الوجوه والأيدى والملابس بالسواد وبأيديهن المحارم يثوبن بها وقد اختلطت الأصوات أي اختلاط ووصلت الى السماء. والاخلال بالآداب المرعية فضلا عن التهاون بأوامر الشرع ونواهيه باد لكل من عنده مسكة من عقل

ولو نظرت لخروج نساء الامراء الى المقابر في أيام المواسم والاعياد

وقد جمعن من المآكل والمشارب ما يكفى لقضاء الليالى هناك لتعجبت من اتخاذ هذه المواضع - مواضع التذكر - أماكن اقامة يتلوث فيها الميت والحى . ولا يعود على تلك الجهات الا القاذورات التى تبقى من بقاياهن وبقايا أيديهن . نعم ان فيها من فعل الخير والتوسعة على أهل تلك الجهات مالا ينكر وكفى ثواب ما يتلى من القرآن على تلك المقابر فى تلك الليالى . ولكن هذا الخير كله مشوب بسيئات جمة ولا ينظر اليه بنظر الخير الا اذا كان منقى من هذه الادران والاوضار

على ان سائر البلاد الاسلامية فيها المآتم مطابقة للشرع وفى غير الاسلامية موافقة للعقل تقضى بحالة لا يتغير فيها حالة البيت وأهله والمتقربين اليه . ولا تنصب فيها البلايا والمصائب بهذا المقدار . ولا يجتمع الموت وخراب الدار . ولا تستمع صياحاً ولا عويلا ولا بكاء ولا نحيبا ونحن لا ندعى عدم الرأفة والحنان ولا نوصى الناس بعشوة القلب وشدة القسوة فقد كفى قول النبى صلى الله عليه وسلم «ولا بد للعين ان تدمع» واعظاً . ولكن الملامة ان تبكى الميت حتى يعود . وان تتلاهى بباطل الحديث فى محال العزاء . وان تتشاغل بلغو القول والقرآن يتلى حتى أصبح الحال (كلحم الحوار فلا هو حلو ولا هو مر) لا ندرى لم اجتمعنا : لقضاء الاوقات أم الاتعاظ بمن مات وفات ؟ ورحم الله الخليفة المأمون حيث قال وقد عزى فى ولده : «ان كنا واريناه التراب بأيدينا فلم نبك عليه ؟ وان كنا نبكى عليه فلم واريناه التراب ؟» وهذه حقيقة يجب الاقتداء بها الأن الموت أمر عام والتساوي فيه فى المصيبة عدل ولا معنى لتكبير الاحزان وتكثيرها وتجسيم الهموم والمصائب وتعظيم النوائب بهذا المقدار

ثم قلت لصاحبى تنقل بنا الى منظر يروق ومخبر يطيب . ومالنا وهذه

المواطن المحزنة وحديثها المؤلم. اما وقدمات الميت فليحى الحى . فلفت وجهى فوجدت معالم مقامة فى اماكن طيبة تدل على علائم افراح وولائم سرور. فتحققت من أحسنها منظرا والطفها اجتماعا وحولت بصرى اليه . فرأيت مكانا أيدل منظره على سعة صاحبه وفرط ثروته فدعونا للعروسين بالرفاء والبنين . ثم أخذنا فى الفرجة عليه فاذا به شكل مخضرم : جمع بين ازياء الشرق وعوائد الغرب. فسمعنا من لطيف الاغانى ما أثلج الصدور . ونظرنا من لطائف المناظر ما بهر العيون . وما زلنا حتى آن ان ينتصف الليل . واذا بباب لطيف فتح فى جانب من المكان أدي الى نظام غربى غريب مرسوم على طراز لطيف تبين لنا منه ان الدعوة منقسمة الى قسمين : الاول من دعى للاطعمة الاعتيادية وهم أهل البلد . والثانى من دعى للدخول فى هذا المكان وهم نزلاء البلاد أو الآخذون على مشربهم. فدعوهم فلبوا مسرعين ودخلوه وفتحت أصناف المشروبات والمرطبات وأمامهم مايلزم من المآكل والفواكه اللائقة لمثل هذا الحال . فاستغرقوا فى لذائذهم حتى تجاوزوا الحد اللائق بهم فكان هذا الاسراف من أكبر الدواعى التى أدّت لخلل نظام الوليمة لأنهم لم يخرجوا منه الى موضع السماع الا وامتلأ المكان صياحاً ونباحاً وأفسدوا ما كان منتظما . وبينما أنا غريق فى هذه الحالة قال لى صاحبى: تأمل حالنا وحال من تشبهنا بهم. ألست ترى طيشا وسكونا وعقلا وجنونا ؟ فنظرت واذا الحال كذلك . واذكرتنى هذه الحالة ليالى فحشهم بمواضع اللهو التي أرانيهم فيها . فأسفت على اننا تشبهنا وما أشبهنا وليس العيب على العادة وانما العيب على من يستعملها وهو يعلم انه يسئ الاستعمال . وحاشا لله ان يكون ذلك تسهيلاً لها وانما هو الحرص على مراتب الجنايه فأن الذى بلغناه من أنفسنا لم تبلغه فينا الاعداء

وما زلنا كذلك حتى مضى من الليل معظمه وداخل أولئك من خمول الشراب ماتغيرت به حالة النشاط معهم فسارعوا للذهاب. وبقينا مع من بقى من محبي السماع نتنقل من مقام الى مقام حتى انتهى أمر الوليمة وانصرف كل الى مكان. وبقيت مع صاحبي فى مناقلة حديث ومساجلة كلام تسترقنا فى اثنائهما سنة من المنام حتى طلع علينا نهار الجمعة الشريف . فتأهبنا الى قضائها وسألت صاحبي فى ذلك فقال لى نلتمس المسجد الجامع لانى أود ان نتأمل لهذه المجامع

فنظرت واذا المساجد والمصليات خلو من المسلمين لم يعمرها غير قليل منهم وهم عامة الخلق الذين بقيت فى قلوبهم حرمة الاسلام ورعاية لابتعادهم عن تلك العوائد وقليل من الطبقة الوسطى الذين عصمهم الله . وقد قل التسارع اليها حتى كأن الذى يؤدى صلاتها ويدعى لها يدعى الى بدعة وضلالة. وكان من فى البلدة من حاكم وآمر من غير المسلمين لا اعتداد له بها ولا رعاية لها عنده . فضاع بينهم أجل مشهد ترتبط فيه القلوب وتتناجى فى ميدانه النفوس : مجتمع المسلمين وحفلة المؤمنين . ولئن دام هذا الحال تصبح هذه المساجد كآثار الاقدمين تقصد للفرجة والزيارة لا للصلاة والعبادة ويقال لمن يدخلها : « هنا كان يصلى المسلمون » ثم صرت اتخلل المساجد بنظرى فى كل محلة فاذا كلها على هذا الحال حتى وجبت صلاتها . فصليناها حيث أدركناها بعد ان سمعنا خطبة تزهق منها النفوس اشتملت على سياق وسباق فات علماء البديع تدوينه وان يسموه « سمّ ساعه » لانه يحيل الصفات الحميدة الى اضدادها فيميت الهمم ويقطع الامل ويفسد العمل ولا معنى له الا الوجود فى رابية على أكمة أو فى نحت تحت جبل قعيدا وحيداً والاستسلام لكل شئ وان يعتقد بأن لافرق بين الحياة والموت . على ان الدين يشتمل على معانى وينتظم فى ضمنه

أمور أخرى عليها قوام هـذه الحياة الدنيا واظهار عجائبها وأسرار موجوداتها ومخلوقاتها . وكفى بقول النبي صلى الله عليه وسلم «الدنيا مزرعة الآخرة » ثم انا خرجنا بعد ان دعونا الخطيب هـذا المسجد وخطيب الكلية الاسلامية بخير وسلام

ثم ان صاحبي اعاد نظري الى ميادين الخلاعة واللهو فاذا هي ملأي بالاخوان والاصحاب والكل على لذائذهم عاكفون وفي امرهم مستغرقون حكموا على اليوم انه يوم لهو وخلاعة وعطلة وفكاهة ففرضوا على أنفسهم فيه ترويح النفس من عناء العمل ولكن على غير ما كان يفعل آباؤهم واخوانهم الذين سبقوهم بل بنوا على قضائه على هذا الحال في مواطن الفحش وقبيح قضاء أحسن الايام في أقبح المواطن. على انهم قد ضيعوا بالتقليد الجديد تلك الاجتماعات الجميلة التي كانت تقام فيه في المنازل على أجمل شكل بطهارة ونزاهة وتقضى بالمسامرات الأدبية والاغاني الشجية . لاعار ولا شنار ولا ملامة ولا غرامة. فبعد ان رأيت ذلك قلت لصاحبي الى هنا بلغت الروح الحلقوم وما كنت أوثر ان أرى بعيني هذه البلدة التي يقال عنها انها « كنانة الله في أرضه» و«وسط ثوب الخلافة» و«منبع العلوم» في جميع الازمنة القديمة والحديثة التي لو عدّ من قصدها من جميع الانام للتعليم والتعلم لفات الملايين عدا بهذا الحال لاوطنية ولا ملية ولا وحدة ولا دين ولا اعتقاد ولا احترام للعوائد القديمة ولا عمل بالتقاليد المحترمة

احلف لك ان لو تغيب عنها رجل من أهلها ثم عاد اليها لانكرها واقسم انها ليست البلدة التي هو من أهلها. لقد كانت هذه الامة لاتجاوز معاصيها فكيف تركت العوام تتابع الضلال من الاجانب الى هذا الحد حتى أصبحوا

شركاء لكل فاسق . ماهذا التفنن فى الآثام من كل طرف . كل من فيها عامل على هدم عوالمها بحسب طاقته حتى لم يبق من تلك الرسوم المعتادة شئ يستدل به على أصلها . اين مجالس أنسها؟ أين لطف أهلها؟ أين المعروف المعروف فى أمرائها؟ أين ظرف خلفائها؟ أين نكات ظرفائها؟ أين المسامرون من أهلها؟ أين القارئون من فقهائها؟ أين المغنيون المحيون لياليها الزاهية الزاهرة التى كان يود الجلساء ان تمد سوادها بسواد شبابهم ؟... لقد فقدت كل شئ حتى لطيف الهزل من القول. أين أسباب ترويح النفوس اذا قبضت ؟ أين دواعى تحريك الطباع اذا وجمت ؟... والله لو ان كل ما كنا فيه كان قبيحاً وكل ما صرنا اليه الآن مليحاً لما جازت هذه المعاوضة. ولكان من الواجب ان نبقى بيننا شيئا من عوائدنا نتذكر به سابق امرنا لندرك من الم بؤس القديم لذة نعيم الجديد . على ان الحال غير ذلك. ولنحن أحوج وأشوق الى ما كنا فيه عما صرنا اليه. لقد استبدلت كل لذة من تلك بهرج ومرج دائمين متلازمين . وتفنن أكلة السحت وخونة الامم فى غرس الخراب بيننا فاسلفوا المضطر وشاركوا المتوسط وحسنوا للغني السلوك معهم فى المراباة فادخلوا الربا عليهم من كل طريق حتى لا تسلم طبقة من مشغولية البال وليفترسوا الكل ويكونوا مأكلة لهم وكان كذلك فحرموهم لذة العيش وأصبح كل واحد فى هم وغم من مداومة الفكر فى ما صار عليه وما سيصير اليه . وكدروا عليهم صفاءهم وأذهبوا بهجة الحياة حتى أصبحت تراهم يتكلفون الانس فى أى اجتماع لانهم لا يغفلون عن ذكر ما هم فيه من تلك الاحوال يتفاوضون فيها فى سماعهم وأكلهم وشربهم وانسهم مع ان تلك السويعات ربما كانت مدبرة بينهم على ترويح أنفسهم ليزيلوا عنها بعض ما هم فيه ولكن كيف ينسى العليل الالم . غدت مواضع اللهو سجونا على قاصديها

من أهل الوطن يرونها وقد صارت باحدى هذه الطرق ليد الاجانب وأصحابها من فرط مادهاهم فى وبال . فقدت أهلها لذة الحياة لما فقدوا لذة القناعة . حمل لهم الاجانب ماليس من طباعهم فطمعوا فيه واستبدلوا عوائدهم بغيرها فدخلوا فى أمور لا قبل لهم بها تحملوا بفعلها الوزر واثقلوا كواهلهم بالدين فاصبحت ارواحهم فى يدغيرهم. وهبوهم ثمرة كدهم وكسبهم فاصبحوا فى حسرة دائمة لا يروق لهم منظر من مناظرها ولا يتجلى فى اعينهم الا وهو ملوث بدماء المظلومين منهم ملطخ بأثر تلك المكاره التى ذاقها اهلها من اجلها فلكل نظرة حسرة والناس فيها لم ينتبهوا حتى رأوا العبرة فى انفسهم وخلت البلدة من النصحاء واصحاب الرأى والتدبير وأسلمت نفسها الى أعدائها يبيدون منها كل مافيها من ثراء ومال وجاه وعوائد وتقاليد وأحكام ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

وبينما انا غريق فى بحار هذه الافكار أرخى الليل سدوله . وسحب الظلام ذيوله . فنبهنى صاحبى وقال لى انا على الرحيل غداً ففى أى شئ تريد قضاؤه ؟ فقلت

لا مرحباً بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الاحبة فى غد

والله لقد فجعتنا بهذه الصحبة التى ما سامت فيها حتى ودعت وكيف اهبط الى الارض بعدالكشف عن بصيرتى ومشاهدتى الاحوال على حقيقتها من غير مصانعة ولا مواربة . ولقد صدقت بقول القائل « ان الرذائل تستأثر أصحابها » ولذلك لا يدرى الفاسق برذيلة فسقه ولا الزانى بمقت الزنا وهكذا من هم على وجه الارض لو كشف عنهم الغطاء لعلموا انهم فى حمأة قذرة

فقال ذلك أمر الله وحكمه فى خلقه فلكل نجم أفول . ولكل زهر

ذبول . ولا بد من الفراق بعد التلاق كما سلك من قبلنا هذا السبيل . حتى مالك وعقيل . فقلت الأمر لله فى أمرنا واليك فى غدنا . فرأى بعد ان فكر ودبر ان يشهدنى الحاكم الاكبر . وأمرنى بالراحة والانتظار . لاري بكرة ذلك النهار . فبقيت ساهما . وقضيت الليلة نادماً . حتى طلع الفجر فنادانى فلبيته فرحا . وناديته فجاءنى مرحا . وأخذنا باطراف الحديث حتى أدركنا ضحوة النهار .

ثم لفت وجهى فاستشرفت قصراً شامخ البناء راسخ الاركان باهراً فاخراً قد شيد على أحسن نظام وأتم هندام واذا وفود الزائرين تتوارد اليه . وصار يرمز لى الى الطبقات المختلفة من أجانب ووطنيين ويرينى من منهم فى خدمة الحكومة كالعالم والحاكم والامير والوزير والمفتى والقاضى . ومن منهم فى الخارج كالتاجر والزارع . وحجاب الحاكم وخدمه يدخلونهم حلبة حلبة على الامير . ودعانى الى التقرب لاستماع الحديث فدنوت باذنى حتى ألصقها بمنافذ المكان . واذا الحديث لا يخرج عن مسامرات اللذة والفراغ وكلما عرض شئ وفيه أدنى مساس بالحالة الحاضرة لاتسمع الا صيغ الدعاء والثناء وترتيل آيات الحمد والشكر على ماهم فيه من الخير . كأنما البلدة بلغت غاية الرفاه ووصلت لأقصى مايتمناه المتمنى لها من السعادة وانتهت فى رقيها لأرقى معارج الكمال . فضجرت وكدت اشافه القوم بما هم فيه . فصبرنى صاحبى وقال لى « لذلك أسباب » وما زلت حتى فرغت الطبقات وانتهت المقابلات فاستئذن على الامير بخادم من خدام حكومة وبيده ورقات عرضها وتشرفت باسمه الكريم من غير معارض ولا مناقض لانهما مما قرره امناؤه ووزراؤه فى مثل جلساتهم الماضية ثم آن وقت الظهر فاستدعى خاصته وتناول معهم الطعام وإذا بحديثهم يفيد ان الزائر لم يزر صدقا والمزور لم يلاقه حقا وانما هو رسم أقيم من قديم ليظهر

فيه الحاكم بمظهر التقرب من رعيته وتكون الرعية مكاشفة له فى شؤونها وأصبح الامر الآن وقد ذهب معناه وبقى مبناه فأسفت وندمت . ثم بعد قليل انتقل ركاب الامير بالعز والكرامة حيث مقامه فتابعته بنظرى حتى بلغه واذا بشؤون خاصة يظهر انه أعدها لنفى السآمة والضجر وقطع الوقت على مااقتضاه حكم القضاء والقدر . فتعلقت برقبة صاحبى وآليت عليه ان لا يبرح حتى يشرح . فبعد ان توقف كثيراً انزوى معى الى ناحية وقال ان الامير أدامه الله يعلم فوق من يعلم ويتألم أشد مما تتألم . ولله مناشئ خير فيه كثيرة امتازبها عن كثير غيره فضلا عن حرية فى الطباع تنبئ عن شهامة وكرم اخلاق وطيب عنصر . ولكن عرض بعد ذلك من الأمور ماأبطأ سير ذلك الخير . قلت ولم ذلك يكون وتختلف هذه الظنون؟ قال: لا اقول

قلت هل أصبح ماوصلت اليه الأمة من جميع الاتعاب والبلايا والاضطهاد والرزايا مقابلا من الاهلين بالسكون كانهم فى منازل الرغد والهناء ليس لحاكمها الاكبر خاصة يشاركونه فى ألمه . قال :وغير ذلك

قلت هل يوجد فى بعضهم من هو مهتاك للسر مشيع له مؤثر هواه غير مأمون من الغش والحسد فلايصح ان يستشار فى شئ من هذا ؟ قال : وغير ذلك

قلت هل بين هؤلاء الزوار من رفعتهم يد الغير قسرا وحكمتهم جبراً ليبطلوا العمل بالخير والمنفعة لحال البلاد فهم فى نظره أعداؤه وفى نظر الأمة أو داؤه ؟ قال : وغير ذلك

قلت هل أصبح أمينهم غير متحفظ من ائتمان الخونة وصادقهم غير محترس من حديث الكذبة وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة ؟ قال :

وغير ذلك

قلت هل فى هؤلاء القوم من يسهل احتمال السلطة الاجنبية ويرضى ببيع البلاد للغريب ؟ قال :وغير ذلك

قلت هل أصبح من القائلين من الباطل غايته فلم يلزم القصد والصواب ؟ وهل أمسى من السامعين من سمعته سمعة ورياء فلا يدفع بالنصيحة هوى ولا يبلغ بها حاجة دنيا ؟ قال: وغير ذلك

قلت هل أصبح من السامعين من لا يؤمن على سر فان ناجيته بخير أو شر كشفه ولم يرزق به اتعاظاً فلذلك لم يخلص أحد له فى نية ولم يسع فى الخير خوفاً على نفسه من عيون الاعداء ؟ قال: وغير ذلك

قلت لقد أصبح الامر مما لا يستبهم على ذوى العقول ولا تشتد فيه حيرة المفكر. وقد وصل علمه الى عامة القوم فضلا عن خاصتهم وتحققوا ان الأمور زالت عن مراتبها والعدو صرح عن محضه ولم يصبح لأحد فى جهالة الحال عذر ولا فى تضييع الحق حجة . فهل لهذا التقصير والاستبطاء والاغترار دواء ؟ قال: لا أدرى

قلت اذاً انقطع الامل . وندع العمل . ولا نترقب طواف طائف الغيرة على النفوس بما فيه مجاراة الامم الذين فكروا فى أمرهم وشمروا عن ساعدهم ونركن الى اليأس والقنوط وننشد قول القائل

ويابعد الاصابع من سهيل ويابعد الصلاح من الفساد

فقال لا أدرى

فقلت له استحلفك بالله الذى خلقك الا ما هديتنى لطريق التحقيق ونصحتنى أيها الصديق ؟ فقال لا شئ غير الرجوع الى الله وسلوك الطريق

المستقيم والتوبة عما فرط . واتحاد القلوب على كلمة الصدق واعلاء كلمة الحق ونبذ التنافر والفتن التى سببت لكم الاحن وجلبت المحن . ونزوعكم عما يسوله لكم الشيطان من البهتان . والتوجه لقبلة الوحدة المحمدية . والسير على الطريقة الشرعية متعاضدين على نصرة الله لينصركم متوازرين على اقامة دين الله حتى يستخلفكم فلو استقمتم ما انتقمتم

ثم قال لى ودعنى ياصاحبى . جانب جانبى . وتخلى عنى . فاذا بى على الغبراء وهو يصيح بى فى كبد السماء : كفاك كفاك ماسمعته باذنك . وشاهدته بعينك . وهذا فراق بينى وبينك